الفصل الثامن

"الوضع مائل إلى السوء هنا يا سِّبنِّ."

كان كارل فيك على الخط الهاتفي من بغداد. كان قد أمسك بي في غرفتي في الفندق العمّاني، حيث كنت ألملم حوائجي وأعيد لملمتها استعداداً للعودة إلى العراق في اليوم التالي، معيدةً ترتيب الملابس الشتوية التي جلبتها معي من واشنطن. كنت قد وافقت على البقاء في العراق إلى نهاية العام، مما جعل المحررين يمكِّنونني من القيام بزيارة قصيرة لأهلي في النصف الأول من شهر تشرين الأول/أكتوبر. تذكرة عودتي إلى الوطن للمرة الأخيرة خُتم الآن بتاريخ 9 كانون الثاني/يناير 2005، بعد ثمانية أشهر من وصولي في جولتي الصيفية القصيرة.

قال لي كارل: "أريدك أن تعرفي ما أنت موشكة على اقتحامه. ثمة صحفية اختُطفت خارج فندقنا. الجميع متوترون. لست مضطرة للمجيء. إنه قرارك، ما من أحد سيفرض عليك رأيه."

في غضون الأسبوعين اللذين كنت غبتُ فيهما، كان العنف في العراق قد تصاعد إلى وابل يومي بالغ القسوة من السيارات المفخخة، عمليات الاختطاف،

والاغتيالات. راح الرسميون الأمنيون الأمريكيون يتحدثون عن نحو سبعين هجوماً يومياً عبر العراق، وهي هجمات على قوافل عسكرية أمريكية، متعاقدين أجانب، عاملين عراقيين في الشرطة والحكومة ومدنيين ممن يجدون أنفسهم في المكان الخطأ في الوقت الخطأ. في 14 تشرين الأول/أكتوبر 2004، أقدم أحد الانتحاريين على تفجير نفسه في مقهى بالمنطقة الخضراء قاتلاً خمسة من المتعاقدين الأمنيين الأمريكيين ومؤكداً مدى هشاشة الأمن في العاصمة العراقية. إذا لم تكن المنطقة الخضراء آمنة، فماذا يقال عن الأمكنة الأخرى؟ بعد يوم واحد وقع صحفي أسترالي يعمل لدى الإس. بي. إس (SBS) يدعى جون ماركينوس في كمين واختُطف من مكان على بعد 500 ذراع (ياردة) من مدخل فندق الحمراء، حيث كنا متحصنين بانتظار تحديث أحد المنازل مقراً جديداً لنا. ومع أن سراح ماركينوس قد أُطلق دون أذى بعد بضعة أيام، فإن الحادث صعق الإعلاميين المقيمين في الحمراء. لم نعد واثقين بأحد ـ جهاز العاملين في الفندق، مترجمو منظمات إعلامية أخرى؛ أي شخص قد يكون مخبراً للمتمردين، جاسوساً، انتهازي **جهاد**. يضاف إلى ذلك، أن قذيفة مورتار كادت أن تصيب بيتنا الجديد قبل يوم واحد من شروع المترجمين في تجهيز المكتب هناك. كان كارل قد أبعدنا إلى الشيراتون، جزئياً لتجنب قذائف المورتار، ولكن لأننا كنا قد أصبحنا مرةً أخرى على ما بدا، على خط تبادل قذائف المورتار بين المتمردين وملجأ وزارة الداخلية العراقية.

في 7 تشرين الأول/أكتوبر كان كارل في الشيراتون وحده حين سقطت قذيفة مورتار على غرفة فارغة في طابقنا، مرسلة وابلاً من ألسنة اللهب وشظايا الزجاج إلى داخل بهو السائقين المجاور حيث كان نصير الصغير يلعب البلياردو. لم يُصَب أحد بأي أذى جراء الهجوم الناري الذي تابعته على شاشة التلفزيون في غرفة أخبار **البوست** بواشنطن. كنت في اجتماع مع ديفيد هوفمان حين فاجأتنا مراسلة الأمن القومي في **البوست**، دانا بريست، بالخبر. انتقل

ديفيد إلى السي. إن. إن. (CNN) بَيَّنْتُ الطبقة التي توجد فيها **البوست**، متعقبة بسبابتي كلاً من غرفنا إضافة إلى المكتب على الشاشة. "تماماً هناك، حيث شبت النار بشجرة النخيل. يمكنك رؤية الطبقة عبر ألسنة اللهب." خرج ديفيد بسرعة ليتصل بكارل. وهرعت أنا لأتصل بعمر. غمرتني النشوة إذ سمعت صوته. كان يقول: "لا تقلقي. كوني سعيدة دائماً!" مضيفاً: "نحن بانتظارك". في غضون بضعة أيام قام جهاز العاملين بإتمام تفكيك مكتب الشيراتون ـ الكمبيوترات، التلفزيونات، كوابل الإنترنت، وأطباق الأقمار الصناعية ـ ونقله إلى حيث عقدنا الآمال على أن يكون مكاناً أكثر أمناً.

حين اتصل بي كارل في عمان، استطعت أن أسمع نبرة مختلفة في صوته. لم يكن يحاول أن يحذرني. يحذرني من ماذا؟ لم يكن قادراً على التنبؤ بما سيحصل في العراق. تلك، في الحقيقة، هي النقطة التي أراد تأكيدها. **الوضع سيئ، صغيرتي، وليست لدي أي فكرة عن مدى التدهور الذي سيشهده، ولابد لك من أن تعرفي ذلك وأنت توافقين على المجيء.** ظل كارل على الدوام أحد الناس المفضلين عندي في البوست. عملنا معاً في مكتب ناحية مونتغومري الميريلاندية في بداية عملي مع الصحيفة. غادر كارل واشنطن في 1997 ليتولى رئاسة مكتب **البوست** الإفريقي في نايروبي ثم انتقل إلى تركيا. كان في المنطقة الخاضعة لحكم الأكراد في شمال العراق، تلك المنطقة المحاددة لكل من تركيا وإيران، عند قيام الولايات المتحدة بالغزو في 2003. لم نكن قد رأينا بعضنا منذ مغادرته إلى ما وراء البحار، وقد اجتمعنا ثانية في بغداد صيف 2004، بعد سبع سنوات. إضافة إلى مهارته الصحفية المثيرة للإعجاب وأسلوبه الفني الجميل في السرد، كان كارل شخصاً رائعاً كامل الأوصاف، أخاً من الغرب الأوسط ترعرع في مينيزوتا وويسكونسن، ابناً لواعظ لوثري. كان متمتعاً بروح دعابة ساخرة، وما من شيء كان يزعجه، على ما بدا، الأمر الذي جعل اتصاله الهاتفي مثيراً

للقلق بالنسبة إلي. حاولت أن أقرأ ما بين كلماته، غير أنني كنت أعلم أنني كنت قد اتخذت قراري.

"لقد قطعت هذه المسافة كلها، يا كارل. لست مستعدة لأن أعود من حيث أتيت!"

بدت العبارة أكثر اتصافاً بالشجاعة مما كانت بالفعل. لا يستطيع المرء أن يخاف ما لا يستطيع أن يراه، ولم تكن لدي أي فكرة عما سيحصل. فقط بعد ثلاثة أشهر، مستعيدة شريط ذكريات الأشهر الثلاثة الأخيرة لعام 2004 في العراق، توقفت لأتامل، واضعة نفسي على رقعة الشطرنج، وأصابعي لا تكاد تمشط قمة رأسي. **هل أتقدم؟ هل أتراجع؟** قدَّرت أن كارل كان يمنحني فرصة للانسحاب، للتراجع. لم يسبق له أن شكك بحكمي، لم يسبق له قط أن حاول إقناعي بتولي مهمة خطرة.

قال: "عال يا جاك! إلى اللقاء حين تصلين إلى هنا غداً!"

حضرت إلى مقر إقامتنا الجديد في اليوم التالي ووجدت كارل عاكفاً على استعراض نشرة أدوات صحية. متوزعاً بين إرسال التقارير والكتابة، بين إبقاء الناس أحياء وتحمل المسؤولية عنهم، تعين على كارل أن يوفق بين مكتب من ناحية وبيت سكن من ناحية أخرى. لم أكن قد خلعت معطفي بعد حين طلب كارل مني أن أتبعه في تسلق السلم للقيام بجولة على غرف الحمام المعطلة. أراد أن يأخذ رأيي بشأن التواليتات، السيراميك، والتركيبات الخفيفة. لم يكن البيت قابلاً للسكن والنوم بعد، وبالتالي فقد بادرت، بعد الإشارة إلى عدد من الحنفيات، إلى الانقضاض على أمتعتي والاندفاع بها إلى فندق الحمراء حيث كان كارل وستيف فانيارو يشغلان غرفتين على طبقتين مختلفتين. وعلى الرغم من أنني كنت الآن في الفندق نفسه مع هنا علام، من النايت رِدر، وهدى، فقد افتقدت طبقتنا القديمة في الشيراتون، افتقدت وجبات العشاء العائلية وبقاء

العاملين على بعد أقدام. كنا نعمل في غرفتنا الفندقية الجديدة بأبواب مغلقة لأسباب أمنية، أو في البيت، حريصين على المسارعة إلى العودة إلى الفندق قبل حلول الظلام. أما في الشيراتون فكنا نعمل وفقاً لسياسة الأبواب المفتوحة. كان الحراس يقومون بأعمال الدورية في الطبقة وينقضون على الغرباء الذين يجولون على الغرف مستفهمين عن جهات أو باحثين عن مكتب **البوست**. حتى الزملاء الصحفيين اعتادوا على التوقف عند مكتب الحرس قبل الزيارة. لم يكن الحراس يثقون بأي شخص من خارج "**الواشنطن بوست**" وقد فتشوا الناس دون تردد.

كنت بائسة في الفندق الجديد، حبيسة، خائفة. صباحات كثيرة قُذفتُ من سريري بفعل الهزة الناجمة عن انفجار سيارة مفخخة في ساحة قريبة. كان قلبي يخفق وأنا أهرع عبر الصالة مارة بغرفة كارل إلى شرفة تمكننا من رؤية الدخان الأسود المتصاعد من الشارع. لم يكن الشعب العراقي أقل منا معاناة مما كان يحصل. بات الأمر واقعهم اليومي: باتوا يستيقظون على المذابح، على فقدان الأقارب والأصدقاء. بدا تحري مجرد موعد تغير الأمور، مجرد معرفة ما قد تغير، أمراً بالغ الصعوبة، إلا أن العراق بدا مختلفاً في تشرين الأول/أكتوبر 2004. أنا نفسي بدوت مختلفة.

رحلتي إلى الوطن كانت خائبة. أمضيت جزءاً كبيراً من الوقت وأنا غارقة في التفكير بالعراق. شعرت بنوع من العزوف والبعد عن أصدقائي. رحت أتساءل ما الداعي إلى وصل الدائرة المفصولة لا لشيء إلا لفصلها ثانية في غضون بضعة أسابيع عند مغادرتي من جديد؟ أحزنني الأمر لأن أصدقائي كانوا كثيري الدعم لي وأنا في العراق، دائبين على إغراقي بسيل من رسائل التشجيع الإلكترونية الطويلة. فأقرب صديقاتي سوزي لم تكن تنام حتى الساعة الثانية أو الثالثة بعد منتصف الليل بتوقيتها النيو جيرسي، كي لا أضطر إلى استقبال الصباح وحدي عندما أنهض من النوم في بغداد. وبعد بضع ساعات كانت جيني

ستتصل فجراً ومعها آيدان، بما لم يكن يترك لي سوى سويعات من العزلة إذا أردت الاتصال بصوت مألوف. واصلت عضويتي في فريق الجري مع جامي وكاثلين ـ "معاول الأميال الخمسة" كما كنا نسمي أنفسنا ـ اللتين كنت قد قررت الجري معهما لانشغالهما بالتدرب من أجل المشاركة في إحدى سباقات الماراتون. ومع كوني في الوطن، شديدة القرب، موجودة مادياً، كنت أشعر بأنني بعيدة جداً. لم أستطع مقاومة الأسئلة التالية: **أنت عائدة! ولكن إلى متى؟ كم من الوقت سيطلبون منك أن تبقي هناك؟** جميعهم أرسلوا خطابات إلكترونية: **لا تذهبي! لا تستطيعين أن تذهبي! ينبغي ألا تذهبي!** هذه العبارات الغبية لم أستسغها. لماذا؟ فكرة تطوعي للعودة إلى العراق، لأبقى أطول فأطول لم تكن قابلة للتصور من قبل أكثر صديقاتي وأصدقائي. لم تكن **البوست** تلزمني بأي شيء. ولكن كيف لي أن أقول للناس المهتمين بي، وأنا أنظر إليهم دون أن يرف لي أي جفن: **أفضل العراق عليكم. أختار العراق بدلاً منكم. مصرة أنا على اختيار الخطر، المرض، والألم بدلاً من ساعة مرح في محل هامبرغرماري ليلة الجمعة، بدلاً من رحلات الزوارق الشراعية على الشنندوا والبيت الساحلي الذي نستأجره كل صيف، بدلاً من أندية الرقص والأفلام السينمائية وحفلات شواء اللحوم. أنا مستعدة للتخلي عن ذلك كله لأن مراوغة الموت تعني أكثر من الإحساس بالحياة معكم جميعاً.** كنت أكثر تعباً من أن أقوى على التفسير، أشد تركيزاً على استجماع الشجاعة الذهنية اللازمة لترك جميع من أحبهم والرحيل مرة أخرى. إذن كان الابتعاد أسهل.

قبل بضعة أيام من مغادرة واشنطن للعودة إلى بغداد، ذهبت إلى الطبيب لإجراء معاينة سريعة. ضغط الدم عندي كان ضعف المألوف. طبيبة الطلاب بمشفى جامعة جورج واشنطن، المكان الوحيد الذي وجدت فيه موعد دقيقة أخيرة، دقت ناقوس الخطر. سألت: "هل أنت قلقة بشأن موضوع معين؟" قلت

لها: "حسناً، لا، لا في الواقع. أنا عائدة إلى العراق نهاية هذا الأسبوع. غير أنني لست قلقة."

استمعتُ إلى جسمي الذي كان ينهشني ووضعتُ لي عقاقير مضادة للقلق مثل الزولوفت والكلونوبين. حملت الوصفات باحترام، دون أي نية لتناولها. أمقت حتى أدوية الرشح والبرد وأتغلب على الرشوحات الشتوية وغيرها من الوعكات دون أدوية عادةً. ألقيت بزجاجتي العقاقير في قعر حقيبتي حيث بقيتا كما هما. من منا يريد أن يكون في حالة ذهول وهو في ساحة المعركة؟ بدا الأمر أقصر الطرق إلى الموت.

غير أني كنت قلقة بعد العودة إلى بغداد حيث وجدت مكتبنا ممزقاً ومبعثراً. وقد افتقدت لمى. شعرت بالمهانة والغضب لأنها تركت دون تفسير، لأنها كذبت حين قالت حصلت على وظيفة جديدة مع الجيش الأمريكي، الأمر الذي استخلصه عمر عبر عدد من الاتصالات الهاتفية القصيرة معها. كنت مستعدة لدعمها في أي قرار تتخذه، غير أنها كانت تعمل خارج الدوام لمصلحة الجيش في أيامها الأخيرة معنا دون أن تخبرني. في مهمتنا المشتركة الأخيرة في أيلول/سبتمبر، ذهبنا إلى سجن أبو غريب لمقابلة وزير حقوق الإنسان العراقي بختيار أمين، الذي كان مجتمعاً مع محتجزين يجري إطلاق سراحهم. كانت لمى مهلهلة ومرهقة وظلت تغفو في اجتماع مع اللفتانت جنرال ملر وباقة من الصحفيين المدعويين إلى السجن ذلك الصباح. أُحرجتُ والتمست لها العذر قائلة لباري جونسون، الناطق باسم الجنرال ملر، إن ابنتها كانت مريضة الليل كله. همست في أذن لمى طالبة منها مغادرة الاجتماع، فعادت إلى حافلة الصحافة ونامت.

اتصل بها عمر وأبو سيف هاتفياً بعد بضعة أيام من توقفها، ببساطة، عن المجيء إلى العمل. في إحدى المرات زعمت أنها عالقة بمدينة الصدر، بذلك

الحي العشوائي الشيعي في بغداد وغير قادرة على الخروج بسبب جريان عملية للجيش. قدمت لنا رواية تفصيلية عن الاجتياح العسكري، مزودة إياي بالدليل الأول على شروعها في العمل لدى الجيش مترجمة. بدت مطلعة على ما هو أكثر مما تستطيع أي مواطنة مسجونة في بيت خالتها تراقب عملية عسكرية معينة من خلف الستائر أن تعرفه. لم تكن لمى ترد على اتصالاتي الهاتفية أو رسائلي الإلكترونية. أثار الأمر حفيظتي. أرادت أن تعيد هاتفها الخليوي الصادر عن **البوست** وشارة الصحافة مع أحد الأقرباء. أمرتها عبر عمر أن تعيدهما شخصياً، وأن تقدم استقالتها بنفسها إلى راجيف مثل أي مهنية، مثل المهنية التي كنت قد أوجدتها. تجاهلتني. عشت في حالة اكتئاب أياماً مثل عاشق مغدور، عاشق خذلته معشوقته. كانت مترجمتي قد فضلت جيش الولايات المتحدة علي! مع مرور الوقت تصالحت مع فكرة أن لمى لن تعود. عندما عدت إلى بغداد في تشرين الأول/أكتوبر بعد زيارتي للأهل، أرسلت حقيبة هدايا إلى بيتها مع سائقنا غزوان غير أنها لم تبادر قط إلى إشعاري بالاستلام.

لم أغادر المكتب لأكثر من أسبوع بعد عودتي أوائل تشرين الأول/أكتوبر. كان كارل يقوم بجولات سريعة إلى المنطقة الخضراء، غير أننا كنا نبقى حيث نحن معظم الوقت. صحفيون آخرون في قطاعنا البغدادي الصغير كانوا قد تعرضوا للاستهداف من أجل خطفهم، للتعقب على الطرق نفسها التي كنا نتبعها لدى مغادرة الفندق، والتي لم تكن أكثر من بعض الحواجز الخرسانية والجنود العراقيين غير الموثوقين الذين لم يكونوا يؤدون واجباتهم إلا إذا تأكدوا أن القناصة الذين يحرسون السفارة الأسترالية كانوا يراقبونهم بمناظير عالية الطاقة. فالجنود العراقيون لم يكونوا موجودين لحمايتنا. كانوا جزءاً من قوة شرطة خاصة لحماية الدبلوماسيين الأجانب، مقولة لم تكن تشملنا نحن الصحافيين.

افتقدت الخروج إلى الشوارع لكتابة التقارير. كنت قد اقتطعت هذا الجزء الصغير من قصة العراق لنفسي، تاركة القصص السياسية الكبيرة لراجيف ومن ثم لكارل. كنت قد فضلت الحديث مع، وكتابة القصص عن العراقيين البسطاء، العاديين. في أيلول/سبتمبر التقينا، بسام وأنا، فريقاً تلفزيونياً تابعاً للشرقية التي هي شبكة فضائية جديدة انبثقت بعد الحرب، في موقع التصوير الخارجي. كان الفريق يلتقط صوراً ومشاهد للمسلسل الجديد الناجح: **العمل والمواد**، الذي هو عرض واقعي لمسيرة إعادة بناء بيت دمرته الحرب. كذلك كانت الشرقية تعد مسلسلاً دراميا بعنوان **اللصوص** عن أسر اغتنت من أعمال النهب والسلب في أعقاب الحرب التي قادتها الولايات المتحدة. ثمة فلم آخر باسم **فيديوات العراق البيتية الأكثر سوداوية**، قام بتسجيل جملة ردود أفعال عراقيين يتابعون مشاهد جيران سابقين يعيشون الآن في الخارج. كان ذلك هو النوع الذي أحببته، النوع المتعلق بالثقافة العراقية، بعراقيين يحاولون مواصلة حيواتهم. كنت أمقت الكتابة عن الموت والقنابل كل الوقت. أردت أن أهتدي إلى لحظات انتصار وفرح، لحظات تقدم في العراق. غير أنني حين عدت في تشرين الأول/أكتوبر، لم أعد إلى عالم منفتح متطلع نحو التقدم بل إلى قفص. كنا مرعوبين ومطاردين، مذعورين من احتمال الوقوع في الكمائن، مذعورين، في النهاية من خوفنا بالذات.

تماسكت كما درجت أن أفعل دائماً شاغلة نفسي بكرة قدم وحفلة عشاء. بدلاً من الطبخ في مطبخ الشيراتون المؤقت، بالاستناد إلى مساعدة نصير الصغير فيما المترجمون داخلون وخارجون للنظر والثرثرة، طبخت وحدي في غرفتي بمواد مكسيكية مجلوبة من الوطن: كواسيديلو القريدس المعلب، دبس الآفوكادو المنكه، الفاصولياء السوداء، والأرز. كذلك طلبت من كارل أن يضع حارساً على سطح الفندق ليلاً لأطمئن إلى أن أحداً لن يأتي ليختطفني منتصف الليل فيما نحن بعيدون عن بعضنا. أمضيت الليالي دائبة على كتابة المقالات

المركبة من التقارير المجمعة من قبل أفراد جهاز العاملين العراقيين، أداة اتصالي الوحيدة مع الحرب خارج نافذتي، وعلى إعداد الشاي للحارس على السطح، هادي، الذي توسل إلي طالباً مني ألا أكون شديدة البُخْل فيما يخص السكر. كان يأتي مرة كل ساعة بحثاً عن مزيد من الشاي، وقد استمتعت بصحبته. كنت قد عثرت على عدد من بطاقات الكلمات العربية في إحدى العلب في المكتب ورحت أتدرب على مفرداتي الجديدة مع هادي الذي كان يحرص بصبر على تصحيح طرائفي في اللفظ.

عدت في تشرين الأول/أكتوبر، شهر رمضان الإسلامي المخصص للصوم، الشهر التاسع في التقويم الديني الذي يؤمن المسلمون بأن الرب أرسل فيه القرآن المقدس إلى النبي محمد. في رمضان هذا يصوم المسلمون من الفجر إلى الغروب كاسرين الصوم بصلاة مع وليمة احتفالية تعرف باسم **الإفطار**. نبهنا القادة العسكريون الأمريكيون إلى احتمال تصاعد وتيرة هجمات المتمردين في رمضان. فالشهداء المسلمون يؤمنون بأن كنوزهم في الحياة الأخرى ستتضاعف إذا ماتوا في أيام مقدسة. كنت أصوم **نهاراً** مع العاملين، احتراماً واختباراً لانضباطي الذاتي. أحياناً كان الجوع يكسب جولة فأقوم خلسة بإدخال علبة صودا وإصبع غرانولا إلى غرفتي، ثم أحرص على تنظيف أسناني بالفرشاة كي لا يشم المترجمون رائحة الخطيئة في أنفاسي. في الأيام التي كنت أنهيها صائمة، كنت أجدني عصبية المزاج ساعة تحلقنا حول مائدة الإفطار في المطبخ، حيث كانت علب بلاستيكية صغيرة ملأى بأطعمة عراقية مبعثرة هنا وهناك. كان العاملون يلتهمون الحمص، الخبز، سلطة الخيار، البقول والأرز، والكباب. كنت المرأة الوحيدة على المائدة، واقفة مع الجميع دائبة على شق طريقي إلى الخضراوات. كان السنة يكسرون الصوم أولاً ثم يتبعهم الشيعة بعد انتظار دقيقة واحدة، مصرين بوَرَع على إطالة أمد عبادة الصوم ولو لعدد قليل من اللحظات الإضافية مقارنة بنظرائهم السنة. كان التسامح سائداً. لم ينشأ أي توترات دينية

بين العاملين. أحياناً كنت أفطر مع السنة، وأخرى كنت أنتظر مع الشيعة. كنت أقول لهم: "يتعين علي أن ألتزم بالموضوعية."

إحدى القصص التي كنا نتعقبها في رمضان تمثلت بعملية عسكرية وشيكة في الفلوجة. ظلت المقاتلات الأمريكية تقصف المدينة ليلياً تقريباً، مُسقطة قنابل عملاقة من السماء الحالكة. استناداً إلى تصريح صادر عن المارينز، أذاعت السي. إن. إن. في 14 تشرين الأول/أكتوبر أن الهجوم على المدينة كان قد بدأ بالفعل. في الحقيقة، لم يكن الهجوم قد بدأ، فقط كان سلاح المارينز يوظف الشبكة لاختبار المتمردين، للوقوف على نوعية رد الفعل الذي يمكن أن يواجهه. تعين على شبكة السي. إن. إن. أن تتراجع عن القصة، مرتدة عنها أساساً. ثار غضب الشبكة وجعلتنا جميعاً في الصحافة نتساءل عن جملة الأضاليل الأخرى التي كان الجيش قد نشرها. كنا نعرف بالتأكيد أن هجوماً كان متوقعاً في منعطف معين؛ فالحكومة العراقية كانت تتعرض لضغوط حادة من أجل حل "مشكلة الفلوجة" قبل الانتخابات البرلمانية العامة المنتظرة في غضون بضعة أشهر. كان كارل وفيل بنت، مدير تحرير القسم الخارجي، قد تحدثا عن كيفية قيامنا بتغطية العملية العسكرية. كان ستيف فاينارو، مراسل **البوست** الموجود في العراق لملازمة الجيش في الميدان أساساً، عاكفاً على لملمة ذيول مهمته الطويلة الثانية استعداداً للعودة إلى الولايات المتحدة قبل حلول عيد ميلاد ابنه. حين أتى كارل للمرة الأولى على ذكر احتمال قيامي أنا بتغطية الهجوم، ترددت خوفاً. كنت محدودة الخبرة الميدانية، ولم تبد هذه العمليةُ المناسبةَ الأفضل للشروع في اكتساب شيء من مثل هذه الخبرة. كان الجيش الأمريكي يخطط لعملية قتالية حاسمة في المدينة، مصمماً على استعادتها من المتمردين. بصراحة، كنت مرعوبة حتى الموت ـ خائفة من الفلوجة، من الانخراط في المعركة، من عدم معرفة طبيعة هذه المعركة. همهمت قليلاً في حديث هاتفي مع فيل غير أنني وافقت على الذهاب آخر المطاف. أكدوا لي أنني كنت بمستوى المهمة.

وبصرف النظر عما إذا كنت موافقة على ذلك التقويم أم لا، كنت أعلم أنه لم يكن ثمة أحد غيري للقيام بتلك المهمة. أقله كنت سأخرج من سجني البغدادي.

اتصلت لأتحدث مع إميلي مسنر، مساعدة مسؤول الأخبار الأجنبية، قبل المغادرة. كانت إميلي نعمتنا من السماء، ملبية طلبات الوصفات وعدسات الاتصال، منسقة الطرود من الأهل التي كانت ترسلها مع المراسلين الجدد، قاصة المقالات لجهاز العاملين في العراق، مؤمِّنة الاتصالات الهاتفية مع الأقارب والمحررين. قبل إنهاء المكالمة، ذكرت إميلي أنها كانت قد تحدثت مؤخراً مع أمي. "ماماي؟"

ارتجفت يداي وأنا أضغط رقم هاتف أختي. رفعت السماعة بعد الرنة الثانية. بالكاد استطعت الكلام. صرخت عبر الهاتف: "لا يمكنك أنت أن تصدقي ما فعلته ماما!"

"ماذا؟ ما الخطأ؟"

"اتصلت بفيل بنت. اتصلت بمحرر قسم الأخبار الخارجية في **الواشنطن بوست** لتسأل عما إذا كنت بخير!"

أطلقت جني ضحكة وقالت: "دعكِ من هذا. لم تفعل!"

"ليس الأمر مزاحاً. تعرضت للإهانة. لا أستطيع أن أصدق أنها أقدمت على ذلك فعلاً. ما أسوأ أن يُظَن أنني أجبن من أن أذهب! ولكن ماما؟"

لاحقاً في تلك الليلة، ندمت كثيراً على تفجري، بالرغم من أنني كنت قد وجهت غضبي نحو جني بدلاً من ماماي. كان هذا شديد التناقض مع شخصية ماماي التي دأبت على تأييدي حيثما ذهبت، مهما تبنيت من خيارات، مهما تسببت لها من قلق. إذا وصل بها الخوف إلى ذلك الحد ـ إلى حد رفع السماعة وتذكير فيل بما أقدم عليه من تصرف إذ خاطر بإرسال ابنتها إلى الفلوجة ـ فإن

من المؤكد والضروري أنها أصيبت بالرعب، ذابت في بحر من الرهبة المطلقة. اتصلت بها وقلت مطمئنة إياها بالرغم من أنني لم أكن أنا نفسي واثقة مما أقول: "اسمعي ماما! أرجوك، سيكون كل شيء على ما يرام!"

حزمت جهازي في 26 تشرين الأول/أكتوبر، ليلة مغادرتي إلى قاعدة المارينز القريبة من الفلوجة. أردت أن أقضي السهرة الأخيرة مع العاملين، محتفلة **بالإفطار** معهم ومودعة إياهم. تشاجرت مع كارل. أصر مستشارونا الأمنيون الغربيون على وجوب مغادرتنا للمكتب الجديد قبل حلول الظلام للعودة إلى الفندق؛ توسلت إلى كارل طالبة منه أن يسمح لي بالبقاء. بادر حراسنا العراقيون إلى وضع خطة تفصيلية لحمايتي إذا اجتاح المتمردون البيت. تدربت على القفز إلى مخبئي في براد التجميد (الفريزر). كانت ثقتي بحراسنا العراقيين أكبر من ثقتي بالشركة الخاصة التي كنا قد وظفناها لتقديم المشورة الأمنية. فالحراس العراقيون كانوا يحبونني مثل أخت. كنت أعلم أنهم مستعدون للموت من أجل حمايتي. وليلة توجهي إلى الفلوجة، أردت أن أكون مع أناس أحبهم، بدلاً من الجلوس في إحدى الغرف الفندقية وحدي، متأملة حياة العزلة الجديدة التي أنا فيها داخل أسوار فندق الحمراء غارقة في بحر من الوحدة والحزن. "إذا كان المتمردون يراقبون، فسوف يرونني ماشية مع حوائجي حين أعود للذهاب بالسيارة إلى المنطقة الخضراء. ذلك يجعلني هدفاً أسهل مقارنةً بمجرد بقائي هنا ببساطة!" غير أن كارل لم يكن مستعداً لأن يتزحزح عن قناعته. لذا فقد جرجرت نفسي عائدة إلى الفندق انتظاراً لحلول الغسق، موعد الذهاب بالسيارة إلى المنطقة الخضراء للاجتماع بأعضاء السلك الصحفي الآخرين تمهيداً للسفر إلى معسكر الفلوجة.

في نقطة تفتيش المنطقة الخضراء، قام حارس عراقي بتفتيش حقيبتي المحمولة على الظهر وجهازي، ساحباً كل قطعة من الأغراض التي كنت قد رتبتها بعناية، معايناً إياها، معيداً بعد ذلك كل شيء إلى حقائبي. صديقتي المصورة

ستيفاني كويكندال، التي كانت إحدى متدربات **الواشنطن بوست** في 2001، كانت أمامي، وقد تبعثرت قطع آلة تصويرها، فيما كانت هي الأخرى تحاول إعادة ترتيب وملمة حوائجها في الظلام. كانت ستيفاني في العراق مع زوجها ستيفان زاكلن، المصور أيضاً. كانت تعمل لدى وكالة كوربيس للتصوير، وكان ستيفان يعمل لدى وكالة برس فوتو الأوروبية. درج كل من ستيفاني وستيفان، اللذين التقيا في الكلية بجامعة ميزوري، على زيارة مكتب **البوست** بانتظام، إذ جاءا لحضور عدد من حفلات العشاء وكانا في حفلة عيد ميلاد لمى في آب/أغسطس. كان ستيفان مفروزاً إلى وحدة مارينز منتشرة في الرمادي، قلعة متمردين أخرى شمال ـ غرب الفلوجة.

كانت هذه مهمة ستيفاني العسكرية الميدانية الكبيرة الأولى أيضاً. أكثر معشر الصحفيين الآخرين الذين كانوا قد اجتمعوا معنا في مركز الاجتماعات كانوا مخضرمين ممن اكتووا بنار غزو العراق وغيره من المعارك، بما فيها الحرب الأهلية في البوسنة، التي كانت بؤرة خطرة أخرى شهدت تعرض الصحفيين للاستهداف، السلب، والقتل بقذائف المورتار ونيران القناصة. كان فريقنا في الفلوجة قد راوغ الكثير من الطلقات ولحظات الموت في طول العالم وعرضه. فآن غاريلز كبيرة مراسلي الإذاعة القومية العامة؛ ند باركر من وكالة الأنباء الفرنسية، الذي سبق له أن كان مراسلاً ميدانياً في أثناء غزو 2003؛ سكوت بيترسون، ذلك المراسل المخضرم **للكريستيان ساينس مونيتور** ومصور غتي إيميجز؛ مات ماكالستر من **النيوزدي**، وهو مراسل حاصل على جائزة بوليتزر سبق له أن سُجن في أبو غريب من قبل جهاز صدام السري بتهمة التجسس قبيل غزو الولايات المتحدة؛ مايكل وير، رئيس مكتب بغداد لمجلة تايم؛ كيفن سايتس، أحد مصوري الإن. بي. سي. (NBC) إجمالاً، كان ما يزيد على سبعين صحفياً قد تقدموا بطلبات لمرافقة قوة المارينز الأولى الخاصة لتغطية عملية الفلوجة.

لم تكن لدينا أي فكرة عن موعد بدء المعركة أو عن طبيعتها بعد إطلاقها. كانت الحكومة العراقية مستمرة في التفاوض مع زعماء المدينة لتجنب القتال، إلا أن المفاوضات لم تكن إلا قناعاً. أدركنا أن القوات الأمريكية والعراقية كانت عازمة على استعادة المدينة بطريقة أو أخرى. في مهبط المنطقة الخضراء، استلقيت على الإسمنت البارد، ساندة رأسي إلى كيس النوم، ورحت أراقب النجوم. يا للهدوء المدعوم بالقمر الساطع المرشح لتنوير حوامتنا التشينوك في رحلتها الجوية إلى الفلوجة. ثمة نوع من الهدوء يخيم عشية أي معركة، سواء جاءت في اليوم التالي أم في الأسبوع التالي كما فعلت بالنسبة إلينا. كنت مصممة ـ صحيح خائفة ولكن مصممة. غير أنني كنت أيضاً متأكدة من توجهي إلى ميدان موت. ثمة متمردون، مشاة بحرية، جنود. ثمة بشر كانوا سيموتون؛ كان ذلك محتوماً. بدا حزمي مجبولاً بقدر مرعب من الحزن.

هبطنا على معسكر الفلوجة منتصف الليل، وليس ثمة ما يرشدنا وينير طريقنا سوى القمر وقضبان "أدلاء الليل" الفسفورية الزرقاء مع طاقم هبوط المارينز. بدا وكأن الصحافة كانت تغزو المعسكر. زحفنا جميعاً مع أمتعتنا لامتطاء الحافلتين اللتين نقلتانا إلى خيمتين كبيرتين، واحدة ذات أرضية ترابية وأخرى ذات أرضية خشبية. توجهنا معاً، نساءً ورجالاً، إلى الخيمة ذات الأرضية الترابية تاركين الأخرى للإعلاميين الذين كانوا سيأتون في رحلات جوية لاحقة. ستيفاني كانت في واحدة من تلك الرحلات. وقع اختياري على السرير الأقرب إلى مقدمة الخيمة التماساً للهواء وحاولت أن أنام فيما كانت موجات الشخير الثابتة متصاعدة من حولي. تذكرت جني وماما، تصورت أبي نائماً على سرير نقال في إحدى الخيم بفيتنام. حاورته في خيالي: "هل تستطيع أن تصدق يا بابا؟ أنا بالذات سأقوم بتغطية معركة. إنني خائفة حقاً. هل تملكك الخوف؟ هل فكرت بماما كل الوقت أم أن الأمر كان شديد الصعوبة؟" واصلت الكلام مع أبي، مع خياله، إلى أن انزلقت أخيراً غائصة في نومٍ متقطع.

كان المارينز تواقين إلى إبعادنا إلى وحداتنا، إلى الفرق المختلفة حيث كنا سنُمضي فترة المعركة. في الصباح التالي لوصولنا تزاحمنا على غرفة مركز تجهيزات المعسكر للاطلاع على مهماتنا. فالمراسلون كانوا، أيضاً، متلهفين لمعرفة من منهم سيكون مع وحدة مدفعية، وحدة مشاة، وحدة مدرعات. أما أنا فلم تراودني أي رغبة عميقة في أن أكون موجودة على خط الجبهة. كنت قد أمضيت في العراق ما يكفي من الوقت لأدرك أن خط الجبهة لم يكن في الواقع إلا ثعباناً ممتداً من جبهة القتال التقليدية إلى المؤخرة، فوحدات الدعم والإمداد. نبهنا المارينز إلى أن هذه ما كانت لتكون معركة نظيفة؛ احتمالات تعرض بعضنا للنيران أو الموت كانت قوية. هذه الأنباء نقلها إلينا بحزم ووقار مرافقنا الرئيسي الملازم الأول لايل جلبرت الناحل شديد الانضباط بتكليف من مكتب العلاقات العامة بمعسكر الفلوجة. تساءلت عما إذا كان قلبي هو الوحيد متسارع الخفقان في الغرفة. شعرت كما لو كنت دجاجة كبيرة. لم يكن في جسدي عضو واحد متلهف لمعرفة شكل الحرب عن قرب. يضاف إلى ذلك كنت قلقة بشأن مدى قدرتي على رؤية ساحة القتال الأوسع، على كتابة مقالات موسعة عن سير المعارك. لم أرد أن أكون في وكر ثعلب لا أرى سوى الدائرة المحدودة المحيطة بي. كانت **النيويورك تايمز** قد أوفدت مراسلين ومصوراً لتغطية المعركة. ودكستر فلكنز، مراسل **التايمز** الرئيسي في بغداد كان سيكون على الجبهة مسجلاً مشهد القتال الاشتباكي المثير. أما بوب وورث فكان سيبقى بعيداً بعض الشيء إلى الخلف، قادراً على وضع تقارير فلكنز في الإطار الأوسع لساحة القتال. ومن ثم كنت أنا في الميدان، وحدي، دون أن أكون مصحوباً ولو بمصور من **البوست**.

استلمت مهمتي، مهمة مرافقة وحدة مشاة مرشحة لأن تكون إحدى الوحدات الأولى المنخرطة في القتال. لم أشعر بأي انفعال. لم أعد نفسي محظوظة. بل شعرت، على النقيض من ذلك، ممتلئة خوفاً. غَضَب مات ماكلستر وجيمس هايدر من **التايمز** اللندنية لعدم تسلمهما مهمات مرافقة وحدات مشاة،

بمعنى أنهما لم يكن وارداً تعيينهما في مقر للقيادة أو مجموعة دعم للمعركة. رأيت أي مهمة مقر قيادة مثالية، بالرغم من كونها أنعم على صعيد رواية المعركة، فاقترحت المبادلة. وافق جلبرت. كانت صفقة. كنت سأتخلى عن الاتساق الناجم عن مرافقة قطعة واحدة في المعركة، متقاسمة تجربة الحرب مع مجموعة واحدة أستطيع تكرار قصتها من البداية إلى النهاية؛ حكاية لا نهائية. بالمقابل، كنت أستطيع، عبر الالتصاق بمقر القيادة، تغطية المعركة، مع عدد من الوحدات المختلفة ـ وحدات الإسناد، المدفعية، والمشاة. كنت سأُحرم من فرصة الكتابة عن تفاصيل اقتحام الفلوجة والتوغل فيها ليلة بدء المعركة. غير أنني كنت سأعرف فعلاً متى بدأت. لم أرد أن ألفق الأمر **للبوست**. إذا كنت مخاطرة بحياتي من أجل هذه القصة، فقد أردت أن أنجزها صحيحة، أن أجعلها الأفضل، أن أحقق شيئاً. اتصلت بكارل. أيدني مباشرة. وجدها فكرة جيدة حين شرحت له ما كنت قد فعلته: حاولت إنقاذ نفسي والقصة. بعد الحديث مع كارل، عدت إلى الآخرين، وتابعنا انتظار بدء المعركة.

أرسلت تقريري الأول في 27 تشرين الأول/أكتوبر من "نواحي الفلوجة"، الموعد الذي حدده المارينز للامتناع عن الكشف عن موقعنا الفعلي. عكس الجنرال دينس جي. هيليك، معاون قائد قوات المارينز الخاصة، حالة الحماسة المفرطة التي سادت المارينز في معسكر الفلوجة. كانت القوات الأمريكية بعيدة عن المدينة منذ نيسان/أبريل 2004 حين أوقفتْ قوات المارينز هجوماً بضغط من البيت الأبيض. كانت تلك ذكرى مؤلمة بالنسبة إلى أفراد المارينز الذين كان كثيرون منهم مؤمنين بأن المتمردين ما كانوا ليستطيعوا بالمطلق أن يُحْكِموا سيطرتهم على المدينة لو بقيت العملية مستمرة. في الأشهر التي أعقبت ذلك، تحولت الفلوجة، الواقعة على بعد 40 ميلاً إلى الغرب من بغداد، إلى المدينة الأكثر خطراً في العراق، إلى بؤرة للمتطرفين الإسلاميين الوهابيين، وقد شاع أن الزعيم الإرهابي المرتبط بالقاعدة أبا مصعب الزرقاوي كان موجوداً في الفلوجة.

ومع أن الاستخبارات العسكرية لم تستطع تأكيد وجوده، فإن رسميين استخباراتيين كانوا متأكدين من أن عناصر تابعة لشبكته كانوا ينشطون بالانطلاق من **الفلوجة**. فمع تصاعد تمرد ما بعد الحرب والهجمات الأعنف والأخطر المرتبطة بالزرقاوي وشبكته، ما لبثت **الفلوجة** أن أصبحت مرادفة لكل ما هو شر في العراق. كانت أبو غريب البلاد، بقعة خارجة على القانون ملأى بالعذاب، بالإرهاب، وبالقتل، بؤرة تعرض فيها المخطوفون للذبح، للموت. قال هيليك: "سنقتحم المكان وسنضربهم ضرباً مبرحاً" فائزاً بلقبه الميداني "هيليك أبو هلاك" في الصحافة.

فيما كنا ننتظر بدء المعركة في يوم بقي مجهولاً بالنسبة إلينا، استقريت في مقري الجديد بمعسكر **الفلوجة**، وهي قاعدة منتشرة دون تنظيم على أطراف المدينة، كانت قوات المارينز تشغلها منذ 24 آذار/مارس 2004، حين حلت محل الفرقة 82 المحمولة جواً. كانت الثكنة قاعدة قيادة قوة المارينز الخاصة الأولى أو الإم. إي. إف. باللغة العسكرية المختصرة. كانت في الثكنة صالة طعام تقدم وجبتين ساخنتين في اليوم، حمامات "دوش"، تواليتات مجهزة بمياه جارية، مركزان لتمارين الكمال الجسماني، ندوة لبيع المشروبات الغازية والفستق والأقراص المدمجة، محل حلاقة، مصبغة لتنظيف الملابس. كانت الثكنة أيضاً تتعرض وبانتظام لرشقات قذائف المورتار والصواريخ التي ظلت تتمخض عن جرح وقتل جنود مارينز راكضين خلف كرة القدم خارج ساعات العمل، قابعين في التواليتات النقالة، أو ماشين باتجاه الندوة. كنا ملزمين بارتداء ستراتنا الواقية واعتمار خوذاتنا في أثناء التنقل داخل المعسكر. درجت على عادة الإصغاء باهتمام في أثناء المشي، لالتقاط أزيز أي قذيفة مورتار محتملة، صوت صفارات الإنذار التي كانت تدعونا إلى أحد الملاجئ للبقاء فيه إلى أن ينتهي الهجوم. أحد جنود المارينز قُتل في ملجأ حين تسلل أحد الصواريخ عبر الفتحة الجانبية الصغيرة، تسديدة موفقة من متمرد يطلق من محيط المعسكر. لم نستطع معرفة

هوية القتيل. فقوات المارينز كانت شديدة التكتم بشأن الإصابات المتكبَّدة وغير مستعدة لإعلامنا بكيفية موت عناصرها لأن من شأن ذلك ألا يفيد إلا في تزويد المتمردين، حسب تفسير جلبرت، بمعلومات عن مدى فاعلية هجماتهم. لم نعلم بأن جندي مارينز قُتل في ملجأ إلا لأننا كنا موجودين عندما حصل الهجوم.

رغم الأخطار والقيود، كنت سعيدة بوجودي خارج بغداد. صرت أرسل تقاريري من مكان قريب من الفلوجة دون الاضطرار إلى التعويل على مترجم. صرت أتجول في المعسكر بحثاً عن أناس أكتب عنهم. صرت أذهب إلى كل الأمكنة. شعرت بأني حرة. حين كانت عمليات التعرض لإطلاق النار تشتد حقاً، كنت ببساطة أنام وأغطي جسدي بالسترة الواقية، تلك البطانية ذات الوظيفة الاستثنائية. قام جنود المارينز بنصب خيمة لنا نحن الإعلاميين، وكنا نكتب تقاريرنا من هناك. كان تدبيراً لا غبار عليه. فالخيمة كانت مزودة بالتيار الكهربائي وكنا نستطيع وصل كمبيوتراتنا النقالة وأطباق الأقمار الصناعية، تمرير الكوابل من فتحات الخيمة وإدارة الأطباق نحو الجهة الجنوبية الشرقية المناسبة لالتقاط أي إشارة. خلال الفترة الممهدة للمعركة، وُضع جزء من المعسكر مع قواعد شغالة متقدمة محيطة تحت قيود تنويرية بمعنى الامتناع عن استخدام الأنوار البيضاء كي لا يتمكن المتمردون من تحديد مكاننا في ظلمة الليل بسهولة. كان جنود المارينز ينزلقون بيسر عبر الظلام، في حين كنا نحن المدنيين نتعثر بالحجارة والحفر. أدركت أنني لم أكن متوفرة على ما يكفي من التجهيزات اللازمة في المعركة فأمضيت ساعتين كاملتين في الندوة حيث تزودت بنظارات خاصة، قمصان قطنية سوداء، سكّينة جيب، مسحوق أقدام، جوارب عازلة، قبعة محزمة، وملابس داخلية طويلة. كان الطقس بارداً في الفلوجة مع شروع تشرين الأول/أكتوبر في التدحرج نحو تشرين الثاني/نوفمبر، ولم أكن أنا مهيأة للصمود أمام ليالي الصحراء الشتوية القارصة. صرت أنام فوق طبقة من ورق المقوى

داخل كيس النوم لاتقاء البرد مقتبسة الفكرة من المشردين الذين ينامون في الشوارع بواشنطن.

حاولت الوقوف على مشاعر الجنود إزاء القتال الوشيك. كانوا يبالغون في إبداء الرغبة في دخول المعركة، في التطلع إلى الاشتباك والإجهاز على الأشرار، في الاستعداد لإنجاز المهمة فالعودة إلى الوطن. ألم يكن الأشرار يحاولون قتلهم، آخرا لمطاف، وقد سبق لهم أن فعلوا؟

في مستشفى الميدان بمعسكر الفلوجة كان بحار أمريكي درجة ثالثة يدعى دنيس آستور راغباً في العودة إلى القتال غير أنه تعين عليه أولاً أن يستعيد الجرأة اللازمة للخروج وحده في الليل. "إنها المشكلة الوحيدة التي تزعجني". جُرح آستور في الحادي والثلاثين من تشرين الأول/أكتوبر حين فجر انتحاري نفسه بجانب قافلة عسكرية بالقرب من الفلوجة، قاتلاً ثمانية من المارينز وجارحاً تسعة، في الهجوم الإفرادي الأعنف على المارينز إلى ذلك الوقت في 2004. "أخاف فقط أن ينتصب زملائي في الخارج، وأن أراهم، نعم أرى رفاقي الموتى." كان آستور عنصر خدمات طبية في فرقة إنزال المارينز الثالثة عشرة المتمركزة في كانيوه الهوايية. لم يكن قد مضى على الوحدة سوى أسبوعين حين تعرضتْ للضرب. ومما تذكّره الرقيب البحار جيسون بندكت من وست ملفورد النيوجيرزية أنه "كان يوماً لعيناً". احترق وجهه ويداه. "لم نكن قد تكبدنا أي خسائر قبل ذلك."

كانت المفرزة جالسة في منتصف الشاحنة ظَهْراً لظهر على أكياس الرمل في تدبير وقائي ضد أي هجوم. أفاد بندكت بأنه لم ير الانتحاري ولم يتذكر سوى أنه سمع دوياً قوياً ثم نظر إلى يمينه حيث كان المارينز جالسين. أضاف: "لم يكن ثمة أي شخص آخر. لم أر غير الدخان."

ما إن تفجرت السيارة المفخخة حتى بدأ المتمردون يمطرون القافلة بوابل من طلقات الأسلحة والصواريخ، كما قال بندكت. صارت حرارة الشاحنة تطلق رشقات الطلقات ودفعات قذائف المورتار حزماً على الشاحنات الأخرى. أكد بندكت أن الهجوم كان منسقاً، بوضوح، بين الانتحاري والمقاتلين المختفين في الحقول القريبة من الطريق. أضاف بندكت "ثمة الكثير من الدروس القاسية التي تعلمناها. بتنا نعرف التكتيكات والتقنيات التي يعتمدها المتمردون. بتنا أكثر حذراً من أعدائنا المختبئين بين السكان المحليين. اعتقد أن ذلك هو ما دفع الجميع إلى الجنون في البداية. ألاّ يكون الأهالي المحليون مطلعين على ما كان يجري أمر مستحيل." إلا أنه أضاف: "نعلم أن المرء لا يستطيع أن يغضب من المحليين، من الناس العاديين المتطبعين بشغف إلى امتلاك الحريات. تكمن المشكلة مع المتمردين." أفاد بندكت بأن الوحدة كانت تواقة إلى العودة إلى الخدمة والمشاركة في المعركة من أجل **الفلوجة**. "تواقون نحن إلى العودة والالتحاق بالركب. لا أحد يريد أن يبقى هنا."

كان آستور يعلم أنه كان سيتخلف لأن حروقه لم تكن تشفى بما يكفي من السرعة. "صعبٌ أن تتغلب عليه، غير أنك ملزم بأن تفعل، ولا خيار." رفاقه من الوحدة كانوا يزورونه في المستشفى وكان آستور يطمئنهم قائلاً لهم إنه بخير. ولكن "هناك في الداخل، في الأعماق كنت ما تزال ترى بين الحين والآخر وجوه رفاقك الذين ماتوا."

لست جندية، وبالتالي فلم أكن قادرةً على الانتساب إلى هذا الشيء في داخلهم، إلى هذه الرغبة في القتال. ومع ذلك شعرت بأن من واجبي أن أروي هذه القصص أيضاً. لقد كان الالتزام نفسه الذي أحسست به دافعاً إياي إلى قصة أي عراقي. بصرف النظر عن سياسة الحرب، عن سياسة معركة **الفلوجة**، لم أكن هناك إلا لتسجيل الوجه الإنساني لما كان يجري على قدمٍ وساق، إلا للحديث عن أولئك المورطين فيما كان يحدث بالعراق، خيراً أكان ذلك أم شراً.

كان معشر الصحفيين مسحوقاً تحت وطأة زحمة ما كنا موشكين على مشاهدته واختباره. حتى صحفيي سُوح القتال الميدانيين المخضرمين عبروا عن القلق. أمضيت بعد ظهر أحد الأيام مع آن غاريلز، إحدى المراسلين القلائل الذين بقوا في بغداد حين اندلعت الحرب في بغداد حين اندلعت الحرب في 2003. كنت معجبة بآن، معجبة بشجاعتها وبتقاريرها من سائر أرجاء العالم. باغتني أن أسمع أنها، مع عدد كبير من الآخرين، كانت خائفة أيضاً. قبل مغادرتها مع وحدتها المتقدمة كتبتُ رقم هاتف زوجها في دفتر مذكراتي المغلف بجلد أسود، قائلة وهي تودع: "اتصلي به... في حال... ربما..." أما بول وود، مراسل البي. بي. سي. في الشرق الأوسط فقد أعطاني رقم هاتف محرره. سجلنا فئة الدم على أشرطة ثبتناها على صدور ستراتنا الواقية. وضعت صورة لآيدان وجني وزوجها بيتر في بطانة خوذتي. قبل تدحرجي إلى خارج الشريط، محيط **الفلوجة** المحروس، سجلت اسمي وفئة دمي على يدي (تحسباً لاحتمال تعرض رأسي للنسف) وعلى رقبتي (تحسباً لاحتمال طيران ذراعي).

فيما كان المارينز عاكفين على الاستعداد لمعركتهم، كنت أنا مشغولة بالاستعداد لمعركتي، محاولةً تصور الأسلوب الذي سأعتمده لتغطيتها من النقطة الفضلى. سألت رئيس العلاقات العامة جلبرت عما إذا كنت أستطيع أن أتجول في قاعدة قيادة المارينز ليلة المعركة. وعدت بعدم الكتابة عما أراه قبل أن يكون كل شيء قد أصبح واضحاً تجنباً لفضح العملية. كنا خاضعين لقواعد صارمة تمنعنا من البوح بتحركات القوات أو الكتابة عن خطط المعارك قبل حصول التقدم. إذا خالفنا القواعد كنا معرضين لعقوبة الإعادة إلى بغداد مع الرحلة الجوية الأولى المتوفرة. لم يحاول المارينز قد فرض الرقابة على ما كنا نكتبه أو إجبارنا على استعراض النسخة قبل الضغط على زر "إرسال" إلى مؤسستنا الإعلامية. غير أنهم كانوا شديدي الحرص على قراءة كل ما كنا نكتبه أو نرسله بعناية، بحثاً عن أي خرق للقواعد. في تقرير تصويري عن **مشاة الليل**، جنود

المارينز المسؤولين عن مهبط الحوامات في معسكر **الفلوجة**، كتبت عن إحساس هؤلاء إزاء المعركة الوشيكة. كان الجنود عاكفين على "تنظيف أسلحتهم، التدريب، الاصطفاف أمام محل الحلاقة لقص الشعر، غسل وجبة أخيرة من الملابس، شراء مؤونة من السجائر، مسحوق الأرجل، وعبوات المشروبات الخفيفة من الندوة." وبعد أسطر في التقرير أوردت كلاماً قاله الرقيب راندال صَظَرْن، احتياطي مع فصيل مراقبة الجو الرابع والعشرين التابع للمارينز والمتمركز في فورت وورث، متحدثاً عن أن ست عشرة حوامة هبطت ذات ليلة خلال فترة أربع ساعات، في إشارة إلى أن أمراً كان موشكاً على الحصول. جاءني جلبرت صباح اليوم التالي بعد قراءة التقرير على الخط. كان يجب علي ألا أبين عدد الحوامات، لأن ذلك كان من شأنه أن يعطي المتمردين فكرة عن كمية الفعالية الجوية في المعسكر، كما قال. كان ردي: "أليس في الأمر شيء من المبالغة؟ أعني أن المتمردين يستطيعون سماع هدير الحوامات. فنحن نسمعها من أول الليل إلى آخره من خيمتنا. أستطيع عدها بنفسي."

قال بحزم: "لا أرقام يا جاكس!"

"رائع."

لم يكن الأمر جديراً بمتابعة الضغط عليه، ولم أكن، بصراحة، ذات مصلحة في تعريض حيوات جنود المارينز للمزيد من الخطر. كان جلبرت يعرف تلك الحقيقة. في عدد قليل من الأيام نجحت في بناء تحالف. لم أكن مشاغبة، ولم يكن ثمة أي سبب يدعو لأن أكون. كنت أحصل على ما أريده دون إلحاح، أقله حتى اللحظة. كان جلبرت قد جعلني "نقطة الاتصال" مع الإعلام والإعلاميين. قلبت التسمية إلى "ضابط مسؤول صغير". اشتملت واجباتي تسجيل أسماء المشاركين في الرحلات وجمع فئات الدم وأرقام الضمان الاجتماعي فيما يخص الرحلات إلى خارج المعسكر. كنت أشبه بأم عرين فرقة مرشدات عملاقة مؤلفة من صحفيين.

كنت لبقة وغير فضولية، أسلوب وجدته أجدى بكثير لدى التعامل مع الجيش. في الوقت نفسه أطلعت جلبرت على جملة القصص التي كنت راغبة في تغطيتها ـ لا العكس. كنت أطلب الحصول على فرص الوصول فأنجح أحياناً وأخفق أخرى. كنت أعلم أن عبوري إلى قلب المدينة مع إحدى وحدات المارينز كان مشروطاً بأن أكون في وضع يؤهلني أقله للكتابة بمرجعية عما كان زملائي يرونه على الأرض. كنت في موقع فريد من مقر القيادة ـ قابلة على عقد لقاءات مع قادة أمريكيين وعراقيين. أقمت تحالفاً صغيراً مع جيمس يانيغا من **التشيكاغو تربيون** وتوم لاستر من النايت ردر لتبادل المعلومات عما نراه من الجبهة والجناح والمؤخرة. كنت أرسل لهما نص إيجازات الجنرالات في المعسكر وكانا يخبرانني عما إذا كان الكلام متطابقاً مع ما كانا يريانه من خندقيهما. كنت بحاجة إلى مراسل آخر يساعدني في تغطية هذه المعركة. اتصلت بعمر. "ما رأيك بالمجيء إلى الفلوجة؟" لم يسبق لعمر قط أن قاوم أي فرصة تمكنه من الاختلاط بأشقائه فوافق مباشرة عندما طرحت الفكرة. كانت المشكلة كامنة في إقناع المارينز بالموافقة على مجيئه. تنظيماً لم يكن مسموحاً لنا أن نصطحب مترجمينا العراقيين لأن المارينز لم يكونوا قادرين على استضافة سوى عدد محدد من الناس، لذا أعلمت جلبرت برغبتي في ملء شاغر مصور بأحد العراقيين. طلبت من عمر تدبير آلة تصوير، أي آلة تصوير في المكتب، مع الاطمئنان إلى القدرة على استخدامها. جل العاملين العراقيين درجوا على استخدام آلات تصوير أو هواتف تصوير جوالة رقمية رخيصة ـ كان من شأن اكتشاف حقيقة أن الشخص لم يكن مصوراً حقيقياً أن يشكل فضيحة كبيرة بالنسبة إلى المارينز. والحقيقة هي أنني كنت أريد عمر العراقي لا عمر المصور. كنت أريد عمر مراسل **الواشنطن بوست**. وصل عمر بعد يومين حاشياً تجهيزاته في حقيبة ظهري البيضاء المخططة بالأحمر التي كنت قد تركتها. كان يعلق حقيبة آلة تصوير جلدية على كتفه. في تلك الليلة اندس في كيس نوم

مستعار على السرير النقال المجاور لسريري، فشعرت بالأمن والأمان. كان عمر مرشحاً لأن يغدو سلاحي السري. كنت قد اجترحت خطة لترك المارينز والالتحاق بالجيش لتغطية القتال من مركز عمليات تكتيكي أقرب إلى الجبهة. كان عمر سيبقى مع المارينز وسيضطلع بدور ضابط الارتباط في الوقت نفسه مع الإعلاميين العراقيين المرافقين للقوات العراقية. لم يكن الوصول إلى الجنود العراقيين متاحاً بالنسبة لأي إعلامي أمريكي. كنت راسخة القناعة بأننا كنا، فيما بيننا، نحن الاثنين، قادرين على تغطية مجمل ساحة الحرب كما لو كنا جيش إعلامنا الخاص.

كانت قوات المارينز الأمريكية قد دعت صحفيين عراقيين لتغطية المعركة، وستة من المئات المسجلين لدى حكومة الاحتلال وافقوا على المجيء. تلك كانت حدود ثقة الجيش بالعراقيين. تم إرسال ثلاثة منهم إلى القوات العراقية واثنين إلى القوات الأمريكية. بنظر الجنود الأمريكيين لم يكن أي عراقي، بصرف النظر عن كونه صحفياً، سوى مشروع خائن أو متمرد محتمل. كان الأمريكيون مدركين لمدى حاجتهم إلى صحفيين عراقيين لتغطية معركة **الفلوجة** الوشيكة. والصحفيون العراقيون كانوا متلهفين للذهاب إلى هناك، للمساهمة في تسجيل المعركة، ولكنهم كانوا ضعيفي التجهيز والإعداد. ذهبت إلى الندوة واشتريت ماكنت بحاجة إليه للبقاء، مدعومة بدولارات البوست التي أوفدتني. أما الصحفيون العراقيون فقد جاؤوا إلى معسكر **الفلوجة** دون غيارات، دون أحذية احتياطية، دون تجهيزات نوم أو مرشات "الدوش". بادرنا، عمر وأنا، إلى تبنيهم على نحوٍ غير رسمي، مزودينهم بفوائضي مع تبرعات من معشر الإعلاميين. قوات المارينز زودتهم بعدد من كمبيوترات الحضن ومنحتهم عدداً من البطانيات وهي تغمغم شاكيةً من أنها كانت قد أوصت العراقيين باصطحاب تجهيزاتهم. ولكن كيف كان العراقيون سيعرفون؟ أكثر الأحيان لم يكن الوقت الذي قضاه عدد كبير منهم مع الجيش يتجاوز رحلة اليوم الواحد لزيارة مشاريع إعادة الإعمار. لم

يكونوا يرافقون الجيش على نحوٍ روتيني. كانت لدي فكرة غامضة عما يتعين علي حزمه استعداداً لرحلة تخييم، غير أن العملية بدت غريبة حتى بالنسبة إلي أنا المراسلة الأمريكية. لم يكن يسعني إلا أن أتصور مدى اختلاف الأمر بالنسبة إلى الإعلاميين العراقيين بمن فيهم أولئك الذين لم يكونوا ملتحقين جدداً بركب المهنة. فحين كان صدام يدعو الإعلاميين إلى مشاهدة أي عملية عسكرية أو مناورة، كان يقوم بإنزالهم في أفخم المحلات ويغرقهم في بحر من الهدايا والرشى وأسباب الراحة. كان صدام يريد من الصحفيين العراقيين أن يشعروا بأن الحرب مريحة، بأن "الشباب" متمتعون بأفضل أشكال الرعاية. كان ذلك جزءاً من الخدعة. كان الجيش الأمريكي يقدم منظوراً مختلفاً تماماً، منظوراً يقضي بأن يأتي الصحفيون إلى المعركة لمواجهتها كجنود، مع جميع منغصات النوم في خيمة ترابية الأرضية، تحت قصف مدافع المورتار، في الوحل. أكثرنا ممن بقوا في المعسكر انتقلنا إلى الخيمة ذات الأرضية الخشبية، التي كانت أفضل قليلاً ومجهزة بالتدفئة. افترض المارينز أن الغربيين كانوا مستعدين للنوم في خيم مختلطة جامعة للجنسين غير أن العراقيين لم يكونوا ليقبلوا بذلك. بقوا في دشمتهم الرجالية الخالصة، رغم أنها لم تكن مريحة. أنفقت قدراً غير قليل من الوقت وأنا أدعمهم في قضايا الأقمار الصناعية، أعيرهم كمبيوتري، ألملم زبالتهم، أجلب لهم العصير. كنت أمقت رؤية أي مراسل أجنبي متذمراً من أحد الصحفيين العراقيين ـ من أسئلته السخيفة، الصاخبة أحياناً، من افتقاره إلى اللباقة في الأسرة الصحفية، كما إلى الخبرة. ربما كنا متفوقين عليهم من حيث التجهيزات وعلى صعيد إتقان كتابة التقارير الصحفية أكثر الأحيان، غير أن هذا كان بلدهم هم.

كان مضر كريم زهيري، من جريدة **الصباح** المدعومة أمريكياً قد جاء لتغطية المعركة مرتدياً كنزة زرقاء وسروالاً رمادياً. جاء دون كمبيوتر. أو حتى هاتف. أو أي وسيلة اتصال أخرى تمكنه من التخابر مع رئيس تحريره. إلا أنه

جاء. حدثنا الرجل الفطن الحريص على بقاء شعره الرمادي قصيراً، الزهيري، عن أن زوجيه الاثنتين وأولاده الثلاثة أمضوا الليلة السابقة ليوم مغادرته إلى **الفلوجة** وهم يبكون. كانوا خائفين عليه، سالت الدموع أنهاراً من عيني الزهيري لدى وصفه لمشهد الفراق المفعم بالعواطف. بسبب مهارته باللغة الإنجليزية كان الزهيري هو الناطق باسم فريق الصحفيين العراقيين في **الفلوجة**. درج على نقل الأسئلة والطلبات إلينا، عمر وأنا، نيابة عن الآخرين. صارحني الزهيري، قال: "سيكون الموقف خطراً بالطبع. سيكون ثمة قتلى. إلا أنني مستعد لكل شيء. أريد نقل الحقيقة من **الفلوجة** إلى الشعب." في إحدى القصص التي كتبتها عن الصحفيين أفادني حكيم عطية جابر، الذي درس الإخراج السينمائي في جامعة بغداد وكان مراسلاً يعمل لدى تلفزيون **العراقية**، بأنه عاشق للحرب. غير أن عينيه جحظتا حين سألته بإلحاح عما إذا كان مستعداً لأن يكون قريباً من مسرح العمليات قائلاً: "أنا أعشق السلم" قبل أن يشرع في دحرجة قائمة طويلة من الكلمات الإنجليزية تأكيداً لوجهة نظره "أنا مؤمن بالسلم. بالديمقراطية، بالسلطة، بالإدارة، بالنظام."

أدركنا أن المعركة باتت أقرب لأن قاعة الطعام كانت قد أصبحت أقل ازدحاماً في الليل، في إشارة إلى أن جل الوحدات المتمركزة في المعسكر كانت قد انتقلت إلى مواقع أقرب من المدينة. كان المستشفى مشغولاً بالاستعداد لاستقبال الإصابات، مع جلب حزم من أكياس الجثث، الأكفان. كانت قوات المارينز والجيش قد حاصرت المدينة مقيمة الحواجز ومحذرة عبر مكبرات الصوت من أن أي رجل دون الخامسة والأربعين يضبط في المدينة كان سيتم احتجازه. كان **للبوست** عنصر داخل المدينة ساعدنا على تقويم مدى صحة ما كانت المارينز تقوله لنا (لأن أكثرية سكان المدينة ذات الـ 300000 نسمة كانت قد رحلت في الأسابيع القليلة التي سبقت الهجوم) بمقارنة ذلك مع ما كان يراه على الأرض (الكلام نفسه ـ مدينة شبه فارغة).

كنا، صديقي المصور ستيفان وأنا، نتأهب لزيارة المستشفى الميداني، برافوسور جيكال، بعد ظهر يوم 4 تشرين الثاني/نوفمبر، التماساً لإحدى قصص الهجوم الوشيك اللانهائية التي كنا عاكفين على اجتراحها في الأيام السابقة للمعركة التي بتنا متأكدين من أنها وشيكة الآن. أما ستيفاني فكانت قد رحلت مع وحدة المارينز التي كانت من نصيبها قبل أيام، وكان ستيفان قد جاء للتو من الرمادي للالتحاق بإحدى وحدات الجيش. كان ينتظر صدور وثيقة تكليفه بالمهمة، وقضينا الوقت معاً، مخططين للتعاون على إنجاز عدد من التقارير أستطيع فيها أن أركز على الكتابة دون الانشغال بالتصوير. رن هاتف ستيفان. فوجئنا كلينا بتلقيه للاتصال. فالاتصالات كانت قد باتت أكثر صعوبة بعد قيام الجيش بالسطو على الإشارات والخطوط. كان أحد مخرجي **الفوكس نيوز** قد وصل إلى **البرافوسور جيكال** وكان على الخط. كانت ستيفاني قد نُقلَتْ إلى المستشفى للتو. كانت في سيارة همفي اصطدمت بلغم على الطريق. كانت قوة الانفجار قد أدت إلى أن تصفع آلةُ تصويرها فَمَها، دافعة أسنانها إلى الخلف نحو لسانها. هرع ستيفان عبر حقل ترابي صغير إلى المستشفى شاقاً طريقه بين الحراس المكلفين بمنع الصحافة من الاقتراب. كانت ستيفاني تحت العملية، واعية ولكن مهدَّأة فيما كان طبيب الأسنان مشغولاً بفمها. طلبت من ستيفان أن يلتقط صوراً، أن يسجل ما كان يجري. في وقت متأخر من تلك الليلة جرى ترحيلها إلى مستشفى آخر في بلد، وسط العراق. اتفقت مع ستيفان على ضرورة بقاء الأخير حيث كان لتغطية المعركة، وقد حصل. كانا قد قطعا كل هذه المسافات. لم يكن ثمة أي تراجع. تفهمت الموقف.

كانت ستيفاني المراسلة الأولى التي تصاب خلال الفترة المفضية إلى المعركة. لدى انتهاء كل شيء، تبين أن جروحها ـ التي شفيت منها تماماً ـ كانت هي الأسوأ. غير أننا لم نكن نعلم بذلك ليلة السادس من تشرين الثاني/نوفمبر، ليلة سبت، ليلة قيام المارينز بنقلنا إلى المعسكر العراقي حيث كان الجنود المدربون

حديثاً يتأهبون للإدلاء بدلوهم في المعركة. ألقى وزير الدفاع العراقي الموقت، حازم الشعلان، خطاباً مثيراً على مسامع الجنود العراقيين المتحلقين حوله. راح الجنود يرقصون ويهتفون رافعين بنادقهم إلى السماء فيما ظل الشعلان يصرخ قائلاً: "إنها المرة الأولى في تاريخ العراق التي نرى فيها بشراً يُذْبَحون مثل النعاج تحت مظلة الإسلام. إن ضمائركم وعائلاتكم تناشدكم. إنها تصلي وتدعو لكم بأن توفقوا في تحرير هذه المدينة." في إحدى منعطفات الخطاب حاول الجنود العراقيون الفضوليون، وبعضهم لم يسبق له أن كان بمثل هذا القرب من امرأة غربية، أن يمدوا أيديهم لملامستي - أولاً قمة خوذتي، ثم ذراعي، وبعد ذلك مؤخرتي. كرروا محاولاتهم المرة بعد الأخرى، ملامسين وممسكين فيما كنت أصرخ وأواصل صفعهم. خرجت من الطوق بصعوبة. تبعوني، ثم وجدت نفسي في حضن أحد جنود المارينز الذي فتح لي باب الهمفي وأدخلني فيه. قال الجندي: "من الأفضل لك أن تبقي حيث أنت" فيما كنت أنظر من النافذة ناقمة وساخطة. ثم حاولت أن أعزي نفسي وقلت بيني وبين نفسي: "**حسناً، إذا ماتوا غداً، فإنني، أقله، وفرت لهم وجبة أخيرة**". لاحقاً، فيما كانت الشمس غاربة ونحن ذاهبان لرؤية جماعة أخرى من الجنود تحدثت تلميحاً عن الجنود العراقيين مع الجنرال ديفيد بتروس، أحد القادة السابقين لفرقة المشاة 101 المحمولة جواً، المسؤول عن تدريب قوات الأمن العراقية. بالنسبة إلى القوات العراقية كان من شأن **الفلوجة** أن تشكل الاختبار الحقيقي الأول لذلك التدريب. وقفنا في ضوء إحدى سيارات الهمفي. ومع انتهائنا من الكلام نصحني بتروس بالبقاء قريبة من أحد الجنود الأمريكيين. قال لأحد حراسه الشخصيين "عينك عليها!" تماماً كما مع الصحافة العراقية، لم يكن الجيش الأمريكي وافر الثقة بنظيره العراقي.

صباح اليوم التالي، يوم 7 تشرين الثاني/نوفمبر، علمنا أن قوات عراقية وأمريكية كانت قد اقتحمت مستشفى **الفلوجة** العام ليلاً واستولت على

المستشفى بالقوة. بدا وكأن معركة **الفلوجة** قد بدأت. فالكولونيل جون آر. بالارد، قائد فرقة الشؤون المدنية الرابعة للمارينز المتمركزة في واشنطن قال إن الجيش كان عاكفاً منذ أسابيع على التخطيط لتأمين المستشفى تمهيداً لمعركة محتملة. أضاف بالارد "طوقنا المستشفى لحمايته. كلمة السر هنا هي الحماية." كان جلبرت قد رد طلبي الأخير الذي التمست فيه تمكيني من البقاء في مركز عمليات المارينز عند بدء المعركة، والآن لم أكن قادرةً على معرفة ما إذا كانت هذه هي البداية أم لا بالفعل. بعض المصادر الإعلامية كانت تؤكد أنها كذلك، ومن المؤكد أن زيارة وزير الدفاع العراقي للقوات العراقية في الليلة السابقة كان من شأنها أن تشي بأن المعركة قد بدأت. غير أن أحداً لم يكن مستعداً لإعطائنا جواباً صريحاً. أدركت أنه آن أوان التحرك باتجاه الجيش. أساساً، كنت قد خططت لدخول المدينة ليلة المعركة مع فريق الاستطلاع الهندسي النخبوي التابع لسلاح البحرية والمتخصص بأعمال البناء. كنت قد قضيت بعض الوقت مع عناصر هذا الفريق في معسكر **الفلوجة**. وكان الملازم كريس ناش، المسؤول عن العلاقات العامة لفوج الإنشاءات المتنقل البحري الرابع، قد خصني برعايته، واضعاً إياي تحت جناحه. أعارني كيس نوم بحري حين قلت له إنني كنت أتجمد ليلاً في ثوبي الصيفي. أبي كان عنصر فوج إنشاءات هندسية في فيتنام. وقد جعلني ذلك أحد أعضاء العائلة رغم كوني صحفية بنظر ناش وقائد الفوج جون كوركا. شعرت أيضاً بشيء من الراحة إزاء احتمال دخولي المعركة مع عناصر فوج الإنشاءات، ذلك الفوج الذي كان مهندسوه مرشحين لأن يشكلوا إحدى الوحدات الأولى المتوغلة في المدينة. ومع ذلك فإنني لم أكن موفقة في دخول المدينة مع عناصر الهندسة، أقله في الليلة الأولى. وهكذا تمكنت في 8 تشرين الثاني/نوفمبر من تدبر أمر الانتقال إلى مركز تدريب عسكري عراقي مهجور في ضواحي المدينة حيث كانت فرقة المشاة الخاصة الأولى 2-2 قد أقامت مركز قيادتها التكتيكي. ضابط مشاة جاد مسؤول عن المركز هو الكابتن أريك كريفدا

استقبلني بحرارة ورحب بي، مخصصاً لي سريراً في مبنى تعرض للقصف مملوء بالخفافيش، وسمح لي بالسفر معه إلى أرض المعركة. قدمت له الوعد الذي سبق لي أن قدمته لجلبرت ـ وعدت بعدم الكشف عن مواقع القوات أو خطط المعارك مسبقاً. وكريفدا ابن غيثر بورغ الذي بدا مدركاً لمعنى وعد **البوست** وافق على طلبي. قال: نعم، لم يكن اقتحام المستشفى كله إلا تمثيلاً لتضليل المتمردين ودفعهم إلى الظن بأن المارينز كانت عازمة على اجتياح المدينة من الجهة الشرقية على امتداد نهر الفرات. لم تكن قوات المارينز قد سربت هذا إلى وسائل الإعلام، دافعةً إيانا في تلك الأثناء إلى الاعتقاد (فالكتابة خطأ) بأن المعركة ربما كانت قد بدأت في المستشفى. أضاف كريفدا أن المعركة كانت، في الحقيقة، ستبدأ في تلك الليلة، ليلة 8 تشرين الثاني/نوفمبر، بعد الغروب مباشرةً. علمت قبل ساعات بما كان سيحدث وقد كتبت مادة موجزة قابلة للإرسال إلكترونياً لحظة مبادرة وحدات المارينز والجيش إلى اقتحام المدينة. بعيد السابعة مساءً بالتوقيت العراقي والحادية عشرة صباحاً في واشنطن، طقطق الراديو في الغرفة. كانت المعركة قد بدأت. اتصلت بواشنطن بعد أخذ موافقة كريفدا. قام فرد بارباش، الذي كان في مكتبنا الإخباري الدائم والمسؤول عن تلقي الأخبار من موقعنا، بالرد على الهاتف. قلت له: "إننا مستنفرون. نحن في غمرة العمل. لقد بدأت المعركة." كانت **البوست** ستفوز بقصب السبق وقد أسعدني أن يكون موقع **واشنطن بوست**. كوم قد أتاح لي فرصة نقل الخبر إلى قرائنا قبل وصول نسخة الجريدة إلى عتباتهم صباح اليوم التالي بساعات غير قليلة، بل، والأهم من ذلك، قبل أن تتمكن محطات التلفزة والراديو من إبلاغ الجمهور بأن الهجوم كان قد بدأ. ضابط استخبارات الجيش في الغرفة المجاورة قطع المخابرة. قلت لفُرَدْ: "ليس بعد! لم تتحرك قوات المارينز بعد. أوقف النشر. انتظر إلى أن أعطيك الإشارة ثانية." بعد بضع دقائق وافق كريفدا ثانية. اتصلت بفرد، فيما كانت المدينة ترتج بدوي يصم الآذان. "الآن، الآن!" انتهت فترة الانتظار. كانت المعركة

قد بدأت أخيراً، وآلاف من الجنود الأمريكيين والعراقيين اقتحموا المدينة الخاضعة لسيطرة المتمردين في أكبر العمليات العسكرية بالعراق منذ الغزو الذي قادته الولايات المتحدة قبل سنة. وحدات المارينز والجيش دخلت الفلوجة من الشمال، وعرباتها المدرعة زاحفة فوق تلال ترابية هائلة أقامها المتمردون حول المدينة. قام المقاتلون بحفر المواقع فيما كانت القوات الأمريكية متقدمة بالاندفاع السريع إلى ما بين المباني مع تقدم القوات زاحفة إلى استحكامات محفورة خلف المباني.

في اليوم الثالث من المعركة سألت كريفدا عما إذا كنت قادرة على الالتحاق بقافلة إمداد متوجهة إلى داخل المدينة لأتمكن من الاقتراب أكثر من الجبهة. كانت القوات الأمريكية قد توغلت في قلب الفلوجة، في مواجهة ألغام الطريق، الصواريخ، ونيران المدافع، سعياً إلى انتزاع المدينة من براثن المتمردين. كانت وحدات الجيش والمارينز، التي دخلت إلى الفلوجة من جهتي الشمال الشرقي والشمال الغربي في ليلة الاثنين أولاً، قد شقت طريقها قتالاً إلى قلب المدينة مع حلول يوم الثلاثاء. ثمة جنود في فرقة المشاة الأولى كانوا قد وصلوا إلى الزاوية الجنوبية الشرقية من المدينة، إلى ذلك الحي المزدحم بالمصانع والمستودعات حيث توقعوا العثور على مقاتلي العصابات بانتظارهم. غير أن المنطقة كانت، على النقيض من التوقعات، هادئة نسبياً بالرغم من أن الوحدات تحدثت عن التعرض لعمليات إطلاق نار من قبل نساء وأطفال مسلحين ببوارید هجومية. قال طيار مخضرم من سلاح الجو يدعى مايكل سمير، في السادسة والعشرين من العمر، من هيكوري النورث كارولاينية، خبير قصف جوي ملحق بفرقة المشاة الأولى، جُرح حين أصيبت عربته المدرعة بقذيفة صاروخية: "ثمة كانت مجموعات كثيرة متراكضة من مكان إلى آخر وهي تطلق النار علينا. كان بوسع المرء أن يرى أكواماً كثيرة من الأنقاض والركام في كل الأمكنة. كان المشهد بشعاً حقاً." أردت رؤيته بنفسي. ليست لدي أي فكرة عن المكان الذي اختفى فيه خوفي، إلا أنه كان قد

اختفى فعلاً. فبعد أن أصبحت متوفرة على فكرة عما كان يحدث، أردت أن أقترب أكثر من الحدث والفعل. كان عمر يتولى متابعة قيادة المارينز على مسافة بضعة أميال في معسكر الفلوجة. من شباك همفي مخلوع بقذيفة مدفع تدحرجنا إلى قلب الفلوجة - إلى مركز المدينة. كانت المدافع تطقطق من الأحياء، وكانت الشوارع مرصوفة بالجثث. بدت المدينة مدمرة. ما من مبنى من مباني المدينة إلا وكشف عن علامات دالة على الخراب. خلال الأيام القليلة التالية ذهبت إلى مركز المدينة مرة أو مرتين في اليوم مع وحدة 2/2، التي كانت دائبة على التقدم جنوباً في قتال المتمردين. وقد واجهت القوات مئات المدنيين الذين بقوا في المدينة، متجنبين الهجوم بالاختباء في منازلهم. رجل يدعى أبو سعد كمن في بيته مع أبيه، أخيه، وابن أخيه، يصلي بصوت مرتفع لإطفاء دوي القذائف. التقيت أبا سعد في إحدى مدارس المدينة، حيث كان قد جاء بحثاً عن طعام.

في 13 تشرين الثاني/نوفمبر، أعلن رئيس الوزراء العراقي الانتقالي إياد علاوي أن المدينة باتت محررة. وبالفعل فإن المدينة كانت قد دُمرت - وليس فقط جراء القصف المدفعي والجوي الأمريكي. فالمتمردون قاموا بتفخيخ البيوت لنسفها لدى دخول القوات الأمريكية. وكانوا يقذفون الوحدات المقتحمة للمباني بالقنابل اليدوية.

كان هذا قتال اشتباك بالأيدي، قتال شوارع. عدد كبير من مقاتلي المتمردين، وخصوصاً المقاتلون الأجانب في الجزء الجنوبي من المدينة كانوا يرتدون ملابس رسمية موحدة. كانت مخابئ الأسلحة مُعْلَمة بإشارات مميزة. كمن المتمردون في البيوت والجوامع وقاتلوا الوحدات الأمريكية من مكامنهم. كانت القوات الأمريكية ترد على النار بالمثل مدمرةً الجوامع أحياناً. وعلى الرغم من إعلان التحرير، فإن القتال في الفلوجة تواصل عدداً من الأشهر.

المدينة نفسها كانت خراباً. وبعد المعركة بأسبوع عدت مع فريق الإنشاءات (السيبيز) (Seabees). تدحرجت سيارتنا الهمفي الخضراء لتدخل الطريق الممزقة الممتدة في الطرف الشمالي من الفلوجة، عند النقطة التي كانت القوات الأمريكية والعراقية قد اقتحمت منها المدينة تحت وابل من طلقات المدافع وقذائف المورتار. سارع عامل التجهيزات الأول وليم سيدو من البحرية الأمريكية إلى القفز من السيارة وبيده القلم ودفتر الملاحظات وراح يعاين الآثار. ولدى دورانه حول أحد الصهاريج لاحظ سيدو، ابن الحادية والثلاثين، من كستر التابعة لساوث داكوتا، شريطاً أسود ممدوداً عبر السكك المعدنية. سار مع الشريط إلى الصهريج حيث عثر على كيسَيْ رمل مملوءين بقذائف مورتار. عاد سيدو، وهو أحد عناصر فريق الإنشاءات الهندسية الطليعي النخبوي التابع لسلاح البحرية، إلى الهمفي التي كانت واقفة على مسافة بضع أقدام من الصهريج - داخل ما يعرف باسم المدى القاتل للمتفجرات المرتجلة، المصنوعة منزلياً إذا صح التعبير أو الآي. إي. دي. IED بسرعة البرق وقال هو يلهث: "دعونا نبتعد من هنا" وهو يشغل المحرك وينطلق بسيارة الهمفي مبتعداً. "ثمة متفجرة على السكة." قال الملازم الأول البحري جفري ماكوي، قائد القافلة أو الرتل، من يونغستاون الأوهايوية، الذي كان جالساً في المقعد المجاور لمقعد السائق، منقضاً على سماعة اللاسلكي لتنبيه أعضاء الفريق الآخرين.

"لم يسبق لي أن رأيتك تتحرك بمثل هذه السرعة يا سيدو."

"عازم أنا أن أخرج من هذه البقعة ومؤخرتي قطعة واحدة، يا سيدي!"

كان رسميو الولايات المتحدة قد وعدوا بإعادة بناء الفلوجة بعد الهجوم وكان فريق إنشاءات السيبيز قد جاء ليفي بالوعد بادئاً أولاً بمسح الخراب اللاحق بسكك الخط الحديدي الذي كانت الطائرات الأمريكية قد مزقته أشلاء بقنابل زنة الواحدة منها ألفان من الأرطال الإنجليزية. غير أن الوفاء بذلك الوعد - في

مدينة مفخخة بشبكة من الأفخاخ الملغمة والمتفجرات مع متمردين مازالوا مستمرين في المقاومة في بعض الأحياء ـ ما لبث أن أثبت أنه أصعب بكثير مما توقعه فريق الإنشاءات الهندسية. كان من المفترض أن تكون مهمة الفريق في ذلك اليوم سهلة إلى حدٍّ بعيد ـ الدخول، أخذ القياسات، التقاط عدد من الصور، الخروج. لم يحصل ذلك.

بعد قيام سيدو باكتشاف القنبلة على الصهريج، تراجع الرتل بسرعة ولكن بتعثر عبر حقل موحل مدروز بأعداد كبيرة من الألغام الأرضية. وبعد ذلك أنفق الفريق نحو ساعتين على تأمين الدائرة المحيطة بالصهريج المفخخ قبل الانتقال إلى قطاع آخر من الخط الحديدي المدمر. وهناك، ما فتئ فريق الإنشاءات الهندسية، السيبيز، أن تحرى الشريط الأزرق لقنبلة ثانية، مما اضطره إلى خروج سريع. وفي محطة ثالثة نصحت الفريق جماعة من المارينز بأن يوقف السيارة خلف تلة ترابية لأن قناصة كانوا يطلقون النار من حي سكني غير بعيد. تدحرجت العربات فوق التلة منزلقة إلى ساحة منبسطة حيث كانت مجموعة من أوتاد الإنشاءات تشير إلى حزمة أخرى من الألغام.

علق ماكوي مازحاً: "إن هؤلاء المتمردين يعقّدون الأمور حقاً." كما في أجزاء أخرى من الفلوجة قاتلت فيها القوات الأمريكية جماعات المتمردين، كان الخط الحديدي متعرضاً لقدر أكثف من التدمير الذي توقعه فريق إنشاءات السيبيز. قال سيدو: "سيئ حقاً. كنت آمل ألا يكون الوضع بهذا السوء، سيتطلب الأمر، أمر إعادة البناء، عملاً كثيراً".

كانت المدينة مقلوبة رأساً على عقب، لا جراء الغازات الجوية والهجمات البرية بل بسبب الإهمال الذي دام سنوات طويلة. بعد المعركة، حتى الكلاب بدأت تنفق، حيث باتت أشلاؤها مبعثرة بين القطع المعدنية الملوية والكتل الخرسانية المحطمة في مدينة نسيت أن تتنفس. كانت أغلاق الألمنيوم للمحلات المصطفة

على جانبي شارع المدينة الرئيسي قد تحولت تحت تأثير قوة الحرب إلى ما يشبه الأكورديونات المفتوحة ـ شرائح معدنية، منبسطة، حادة، ممزقة، كفت عن إخفاء حشود الأواني الفضية، أثاثات المكاتب المغلفة بالبلاستيك، لفافات السجاد.

الدخان الأسود كان يتصاعد من المباني في طول المدينة وعرضها فيما كانت المدفعية الأمريكية تواصل قصف مواقع المتمردين ومخابئ الأسلحة بعد يوم من إعلان القادة لنبأ تحرير المدينة على كتلة جدارية محروقة قرب جامع عثمان بن عفان على الشارع الرئيسي العابر للمدينة من شرقها إلى غربها قاسماً إياها إلى شطرين، كان أحدهم قد خربش عبارة "لقد عاد الإسلام!" بخط رديء. لم يكن ثمة أحد ليرحب به الآن، كما لم يكن هناك من يمكن أن يستقبله. وأعلنت خربشة رديئة أخرى أن عيش المقاتلين المقدسين الشجعان حيوات طويلة لم يكن ذا علاقة بقوس ساحة النصر المهجور، بذلك القوس المعدني التذكاري وصورة صدام حسين الزيتية التي تغضنت قبل أشهر بفعل لغم أرضي استهدف رتلاً أمريكياً.

كانت المدفعية بالغة الأهمية في هذه المعركة، والدليل هو الشارع المركزي المخترق للبلدة المحروق والمهدم. اختزالاً للمخاطر المتوقعة بالنسبة إلى القوات البرية إلى الحدود الدنيا، دأبت بطاريات المدفعية على قصف الأهداف المشبوهة قبل تقدم المشاة. وكانت الغارات الجوية وقذائف المورتار تزيد من كثافة الضغط. أحياء كاملة طُحنت بهذه الطريقة. الزجاج المحطم، قطع الأثاث الممزقة، الأنابيب المخلوعة وغيرها من الأنقاض كانت مكومة على الأرصفة. بدت الفلوجة أشبه بمدينة هجرها الجميع ببساطة. محل لبيع الفواكه والخضار قريب من قوس ساحة النصر كان مهجوراً، إلا أن سلال الشبك البنية المرتبة كانت لا تزال على الرفوف. فاحت من المدينة رائحة الغبار، الرماد ـ الموت. على مسافة بضع مباني من معرض الفاكهة، كانت جثة متفسخة محروقة لرجل ملتحٍ في جلباب بدوي أسود ممددة على الطريق، مفتوحة الذراعين.

عربات مدرعة أمريكية تمركزت على بعض المنعطفات فيما راح جنود الجيش والمارينز يراوغون الأبنية المفخخة والقنابل والألغام غير المتفجرة لتفتيش جميع البيوت، جميع المباني بحثاً عن متمردين.

فيما كان البريغادييير جنرال دنيس جي. هيليك، معاون قائد قوة المارينز الخاصة الأولى، متجولاً في حي غربي قريب من عنق جسر عابر لنهر الفرات، نشب اشتباك بالنيران بين عناصر مارينز مشغولين بمسح البيوت ومتمردين مختبئين في أحد الأزقة الضيقة. أزيز الاشتباك زاد حدةً، ومشى هيليك باتجاه طقطقة الرشاشات ودوي قنابل المورتار. صرخ "كفى أيها المارينز!" متقدماً في الاتجاه نفسه. تمتمت بيني وبين نفسي: "لا، ليسوا مارينز!" احتميت وراء أكبر عنصر مارينز اهتديت إليه وسرنا خلف هيليك... كان عناصر أمنه ومساعدوه خلفه، ويد كل منهم على الزناد. قام هيليك بمراقبة الموقف لبعض الوقت ثم عاد إلى سيارته. لدى سؤاله عن سير المعركة، نظر هيليك إلى الشارع المهجور وقال: "هذا هو ما فعله. هذا هو ما نحسن فعله."

لاحقاً، مع غروب الشمس وتأهبه للعودة إلى موقع عسكري متقدم خارج المدينة، قال هيليك إنه كان سعيداً بحصيلة المعركة وبالطريقة التي اعتمدتها القوات الأمريكية على صعيد الاهتمام بالمدينة إلى أن يتمكن السكان من العودة. قال هيليك: "ما رأيته هناك حشد من المارينز والجنود المحترفين الدائبين على حماية وحراسة ممتلكات العراقيين. غير أنهم مازالوا يطاردون الأوغاد ويضربونهم."في الأفق البعيد قذيفة مدفع أزّت عبر الهواء وحطت محدثة دوياً، صوت كان من شأنه العربات المهمهمة أن تخنقه لو كان ثمة أي حركة مرور. لم يكن هناك، في الحقيقة، سوى الصمت المطبق. وبعد غياب الشمس خلف الأفق القرمزي، لم يبق أي شيء يمكن أن يُرى.

متعبة جراء السفر إلى خارج المدينة، غلبني النوم وأنا في المقعد الخلفي لسيارة الهمفي متكورة لدى قيام الرامي بإطلاق النار من الفتحة وتساقط فوارغ الطلقات حول قدمي. كان الصوت يصم الأذن، غير أني كنت أكثر تعباً من أن أبالي، أكثر تعباً من أن أبدي أي رد فعل. مستعدة أنا أن أنام ولو مت. لم أكن راغبةً في الاستيقاظ.

تكررت رحلات ذهابي وإيابي فيما بين وحدات المارينز والجيش متبعة ذلك الخط الثعباني للجبهة. كتبت قصصاً عن الرجال والنساء المسؤولين عن مخزن الوقود، مستودع الذخيرة، أسلحة المدفعية. كتبت عن وحدات التموين المكلفة بنقل الطعام والماء إلى الجبهة، مصطدمة بألغام الطريق ومتعرضة لنيران كمائن المتمردين. ما يزيد على خمسين عنصراً من القوات الأمريكية قتلوا في الأيام الخمسة الرسمية الأولى من المعركة إضافةً إلى مئات الجرحى. عناصر الخدمات الطبية والجراحون الذين تولوا معالجة الجرحى أفادوا بأن الجروح كانت استثنائية التخريب، ناجمةً بأكثريتها عن انفجارات قريبة. قال رئيس فريق الإسعافات الأولية الضابط دامون ساندرز: "لاحظنا أعداداً متزايدةً من جروح الشظايا. نموذجياً ثمة واحد أو اثنان يأخذون النصيب الأكبر من الانفجار، في حين يصاب الشباب الآخرون بشظايا." أضاف ساندرز الآتي من تمكولا الكاليفورنية أن الجروح كانت أبشع من تلك الحاصلة في العراق، لأن المتمردين كانوا مسيطرين على المدينة منذ أشهر، وبدوا مستعدين للقتال. ثم قال: "عندما تنتظر تعطي العدو الوقت اللازم للاستعداد. أما حين يكون مطارداً فلا يستطيع أن يفعل شيئاً كثيراً."

لم يشهد نائب العريف البحري ديفي آلن أحداثاً ذات شأن في الأيام الأولى من الهجوم. غير أنه، بعد أسبوع واحد، بعد أن جرى توفير الأمن للجزء الأكبر من المدينة، كان هو وفصيلته - التي هي جزء من الفوج الأول في لواء المارينز الثالث - دائباً على تطهير البيوت في أحد الأحياء الشمالية التي مسحتها القوات

في بداية الهجوم. وبعد معاينه نحو خمسين منزلاً، كان آلن القادم من كلوفرديل الأوريغونية يستعرض غرفة المعيشة الصغيرة لأحد المساكن حين سمع طلقات الرصاص المنبعثة من المطبخ. نوافذ البيت كانت محصنة بالقضبان، والقنبلة اليدوية كانت شديدة القرب من المدخل ولم تترك للآلن أي مهرب. لم يبقَ أمامه سوى خيار محاولة اتقاء أذاها. "تكورت في الزاوية ورحت أنتظر. انفجرت وراء ظهري." اثنان من المارينز جُرحا وقُتل ثالث في الهجوم. عناصر الخدمات الطبية سارعوا إلى إيصال آلن إلى المستشفى برافو الجراحي مثقلاً بأربع وعشرين شظية في ظهره.

إن وتيرة تغطية المعركة، رؤية الجروح الخطيرة، مراقبة الجرحى والقتلى من الجنود، متابعة مشاهد تمزيق المتمردين أشلاء، مشاهدة المدينة وهي تُدمر، محاولة التقاط ذلك كله، أدت إلى إرهاقي بعد أسابيع وأسابيع. في بعض الأيام كنت أكتب قصتين، قصة المعركة الرئيسة وما أصبحت أطلق عليه "قصصي عن الجنود." كنت أحتسي ستة إلى سبعة فناجين قهوة كل ليلة بعد العشاء لأبقى سهرانة إلى الثانية أو الثالثة صباحاً. كنت أقع على سريري ثم لا ألبث أن أنتفض في السادسة أو السابعة لبدء النهار كله من جديد. غالباً ما كان عمر يسهر معي منكباً على كتابة مواده الخاصة المستندة إلى سلسلة مقابلات مع جنود وجنرالات عراقيين. كنت أكتب عن المعركة للسي. إن. إن. انترناشيونال والإم. إس. إن. بي. سي.، ظاهرةً مباشرةً على الهواء عبر محطة فضائية موجودة في معسكر **الفلوجة**. كنت أصف المعركة للإيه. بي. سي. نيوز، للإن. بي. آر. **والنيوز أَوَرْ مع جيم ليهرر**. وهناك في الوطن كان أقاربي يتابعون هذه التقارير، مستمعين إلى صوتي، مقتنصين لقطات مني أنا المتعبة، المغبرة، الموسخة. أعلنت الجدة سبنر في إحدى الليالي بعد أن رأتني متحدثة عبر مكبر الصوت أمام إحدى الدشم الخرسانية: "لا أحب شعرها!". لم أكن قد أخذت "دوشاً" منذ أيام. في المرة الأولى التي أجريت فيها مقابلة حية على التلفزيون كان المخرج قد سألني

عما إذا كنت قد جلبت معي أي أدوات زينة وتجميل. أدوات تجميل؟ إلى ساحة معركة؟ وافقت على استعمال قليل من مرهم التشاب ستيك (مرهم لمعالجة الشفاه المتشققة) ـ كان ذلك كل شيء. انتقدني عمر قائلاً: "يجب عليك، أقله، أن تمشطي شعرك!" لحست أصابعي ومسّدت شعري. وسألته: "أراضٍ أنت يا فارس الأناقة؟" مكشرة.

كان المارينز يتيحون لنا فرصة استخدام مرفق الغسيل، وكنت، عمر وأنا، نأخذ قمصاننا الوسخة وسراويلنا الموحلة لتنظيفها. ثمة متعاقدون فرعيون أجانب يعملون لدى الكي. بي. آر. يشغلون مرفق الغسيل. بعض هؤلاء كانوا عراقيين، غير أن الأكثرية كانت من الفلبين. لدى قيام عمر بتسليم ملابسه، تبادل التحية مع أحد العراقيين بالعربية ثم أعطاه بعض التوجيهات حول ملابسه. صرخ أحد المتعاقدين في وجه عمر قائلاً: "الإنجليزية فقط! اللغة العربية ممنوعة!" احمرَّ وجه عمر منفعلاً.

تدخلت قائلة: "هل تريد حضرتك أن تمنعه من التكلم بلغته في بلده بالذات؟ هذا هراء، وأكل خ...! ليس هذا بلدك أنت!" درت وخرجت بخطوات ثقيلة وعمر بجانبي. قبل يوم واحد كان عمر قد دخل المدينة مع فريق شؤون مدنية تابع للمارينز. كنت لا أزال مع الجيش وكان عمر متلهفاً لرؤية المدينة بنفسه، فشجعته على القيام بالرحلة. كلما كانت الصحافة تدخل المدينة، كنا نستقل سيارات همفي مدرعة عادةً التماساً للمزيد من الحماية لأننا لم نكن مسلحين بأي أسلحة تمكننا من الدفاع عن أنفسنا. حين تأهب عمر للصعود إلى الهمفي أمره أحد عناصر المارينز بركوب شاحنة مكشوفة مع عراقيين آخرين كانوا يعملون مترجمين لدى الجيش. رفض عمر الأمر وتابع صعوده إلى الهمفي، قائلاً: "أنا مع **الواشنطن بوست**. هذا هو المكان المخصص لي."

بقيت في الفلوجة حتى 22 تشرين الثاني/نوفمبر ـ شهر تقريباً. عاد عمر إلى بغداد قبلي. كنت قد تآلفت مع المدافع والقنابل، قد أصبحت شبه صماء

ومحصنة ضد الخوف. لم تكن الأوضاع في بغداد أفضل. بل وكان كارل قد أغلق المكتب يوماً أو اثنين وأمر العاملين بعدم المجيء إلى البيت خوفاً من احتمال تعرضهم للاستهداف أو تمكين المتمردين من الاهتداء إلى المكان. رفض المترجمون البقاء في بيوتهم وواصلوا المجيء إلى المكتب على أي حال. خافوا من أن يكون الأمر دليلاً على احتمال انسحاب **البوست** من العراق، احتمال فقدانهم لوظائفهم، احتمال عدم اكتمال رواية القصة. كنت قد قلت لعمر: "انظر واسمع جيداً! قل للجميع إن **البوست** لن تغادر العراق. أنت مدير المكتب. مكلف أنت بتهدئة روع الآخرين. لا يفعل كارل إلا ما يشعر بأن عليه أن يفعله لضمان بقائكم آمنين وسالمين. حيواتكم مسؤوليته هو. وأنا أعرف أكثر منكم. أعرف أن **البوست** لن ترحل. نحن لن نتخلى عن قصة العراق. قل للسائقين. كلّم الطباخين. طمئن الناس!" وتعبيراً عن نوع من التضامن تعمدت الإتيان على ذكر جميع أسمائهم في ختام قصة الفلوجة لذلك اليوم. رغم جميع التدابير الاحتياطية التي كان مترجمونا العراقيون يتخذونها فإنهم ظلوا مصرين على عدم التنازل عن هذا الحق في إيراد مساهماتهم في القصص. كانوا متعطشين للتواقيع، أسماء المساهمين في هذه المادة الصحفية أو تلك، وحرصوا على عدد نسخ الجريدة المرسلة من واشنطن كما لو كانت "فيش" لعبة "بوكر". أدهشني أن المتمردين لم يكونوا، حتى اللحظة، قد اهتدوا إلى هذه الرابطة. غير أنني أفترض أن هذه كانت إحدى طرق التأكد من أنهم كانوا صحفيين يعملون لدى **الواشنطن بوست**. كان الأمر واضحاً وضوح الشمس. باتوا مكشوفين تماماً جراء عدم طمس أسمائهم في الأحاديث مع الأصدقاء والأقارب. اتصلت بعمر وقلت له: "انظر! نحن في مركب واحد!"

في 23 تشرين الثاني/نوفمبر بدأ الجيش انسحابه من الفلوجة، تاركاً المدينة للمارينز. أنا أيضاً تأهبت للرحيل، للتوجه مع الجيش إلى بعقوبة، بؤرة تمرد أخرى شرق العراق. ليلة مغادرتي مشيت الطريق الترابية إلى معسكر فريق الإنشاءات

الهندسية وتركت كيس النوم المتبرع به على مكتب كريس ناش. لم أعد بحاجة إلى مصباح يدوي للاهتداء إلى الطريق. باتت القاعدة مألوفة بالنسبة إلي مثل أي مكان سبق لي أن عرفته جيداً. مع تفجر صوت رشقات المدفعية في الأفق البعيد، رحت أتساءل عن مدى روعة المشي في شارع هادئ، دونما خوف؛ عما إذا كنت سأنعم مرةً أخرى بنعمة المشي في شارع هادئ مغمورة بمشاعر الطمأنينة.

كانت جاكي في كل الأمكنة خلال معركة الفلوجة: على شاشات التلفزيون، في الإذاعة، على صفحات الجرائد. نعم في جميع الأمكنة باستثناء البيت. كم كنت أريد أن أهز الناس في المترو خلال سفرتي الصباحية إلى العمل وأخبرهم بأن الصوت الذي كانوا يقرؤونه في الصحيفة يخصني. بالنسبة إلى جل القراء كانت "جاكي سبنر، إحدى المحررات المحترفات" شخصية غير مرئية كامنة وراء كلمات الزاوية. غير أن جاكي سبنر كانت هي الأخرى تأتي، جنباً إلى جنب مع جريدتي التي كانت تحط عند عتبة الباب كل صباح، حيث تشكل قصتها برهاناً على أنها مازالت على قيد الحياة.

كانت أختي جاكي تتحدث مازحة عن مدى قيامها "بالترويج لنفسها" لدى وسائل الإعلام في أثناء المعركة، غير أنني كنت أعيش من أجل التقاط كل حركة من حركاتها، واقفة أمام جهاز التلفزيون خلال برنامج النيوز أَوَرْ على البي. بي. إس. وأذناي ملتصقتان بكل كلمة مطقطقة، ويدي تمسح الشاشة ملامسة صورة وجهها. مرة، فيما كنت أقود سيارتي واستمع إلى مقابلة كانت تجريها مع الإن. بي. آر. (الإذاعة الوطنية)، تعين عليّ أن آخذ اليمين وأصف السيارة في مكان مخصص للوقوف وأنتظر إلى أن هدأ خفقان قلبي لم أسمع ولو كلمة واحدة، فقط سمعت صوتها، ثابتاً، ذكياً، مفعماً بالحياة.

مناسبات ظهور جاكي العلني ساعدت على التخفيف من الخوف الجديد الذي شعرت به عندما أخبرتني عن اعتزامها مرافقة الجيش ميدانياً. على الرغم من أنها كانت في خطر أكثر الأحيان وهي تكتب التقارير في بغداد، فإن نوع الخطر الذي باتت تواجهه في أثناء التنقل مع الجيش الأمريكي كان مختلفاً. كنت أعلم أنها ظلت تزداد كآبةً جراء بقائها سجينة مكتب بغداد وعاجزةً عن الإسهام الحقيقي والجدي أو النوعي في كتابة التقارير المباشرة النابضة بالحياة. بمقدار ما كنت متعاطفة، كنت سعيدة في سري، مطمئنة إلى أن مكروهاً لن يصيبها طالما هي قابعة في ذلك المكتب.

بعد ظهر ذلك اليوم الذي غادرتْ فيه أختي بغداد لتغطية المعركة، اتصلتْ مودِّعة. تذكرتُ اللحظات الأخيرة من حياة أبي، حين كان ممدداً. مقطوع النفس، لاهثاً في غرفة النوم التي كان يتقاسمها مع أمي. خلال صراعه مع السرطان، كنت قد تصورت جنازته عدداً غير قليل من المرات غير أني لم أفكر ولو مرةً واحدة بالكلمات الأخيرة التي كنت سأهمس بها في أذنه وهو يحتضر. ما الذي كنت قد قلته آنذاك؟ ما الذي أقوله الآن؟

حين بدأت أحدث أختي قائلة: "فقط أريدك أن تعلمي". راح ابني البالغ سنتين من العمر يشد ذراعي، فرجوته "آيدان! أرجوك!" محاولة التماس العذر لعدم تفهمه للموقف، ولكن شديدة الرغبة في مواصلة الكلام، في وداع أختي إلى المعركة بشيء ذي معنى. رفعت الهاتف إلى مستوى لا يستطيع آيدان بلوغه وحاولت الاتصال بزوجي، غير أنني ما لبثت أن قطعت الخط جراء الانفعال والاضطراب. في النهاية لم يكن وداعي أكثر من زحمة حشرجات، لعبة شد حبل مع العايش.